ملخص البحث :

يعنى البحث برصد ملامح السرد في السيرة الذاتية التي دونها الدكتور محمد البهي – رحمه الله– ، وسطرها بقلمه في أخريات حياته في كتابه الموسوم بـ " حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ.. ووزير "، الذي سجل فيه رحلة حياته، وما اشتملت عليه من أحداث، مغلبا جوانب حياته العلمية والعملية منذ نشأته حتى تاريخ كتابته هذا الكتاب، وذلك بغرض رصد الأبعاد الجمالية لبعض الملامح الفنية، أو الآليات التي وظف الكاتب من خلالها السرد؛ لتسجيل سيرته الخاصة بما استدعاه من الذاكرة، كما سعت الدراسة إلى تتبع ملامح البناء الفني للسرد في السيرة الذاتية، ومحاولات استجلاء عناصره من خلال تحليل النص المدون، تحليلا يبرز آلية توظيف الكاتب لهذه العناصر؛ والتي تتمثل في السارد (الراوي)، والشخصيات، والحدث، والزمن، والمكان، وكذلك ملامح السرد اللغوية والأسلوبية بدلالاتها الموحية، من خلال دراسة البنية السردية القائمة على السرد (الحكي أو القص) عند الكاتب.

الكلمات المفتاحية :

السرد، السيرة الذاتية، المذكرات، فن السير، حياتي في رحاب الأزهر، الدكتور محمد البَهِيّ.

Research Summary :

The search is interested in monitoring the features of the narrative in the CV that Mohammed Al Bahi has written (In his biography marked with my life in Rehab Al Azhar , a student .. professor.. minister) .

He recorded his life journey and the events involved, overwhelming aspects of his scientific and practical life from its inception to the date of writing of this book . For the purpose of monitoring the aesthetic dimensions of some of the technical features or mechanisms through which the writer hired the narrative by recording his own biography with his summons of memory .

The study also sought to track the features of the narrative technical structure in the curriculum vitae and to try to clarify its elements through an analysis of the written text highlighting the authors recruitment mechanism for these elements ; which is the narrator , the characters , the event , the time, the place) . Also, the features of the linguistics narrative with its suggestive connotation through the narrative structure based on the narrative (story telling , or shearing) of the writer .

KEY WORDS:

Narrative, biography, memoir, diary, biographical art, my life in Rehab Al Azhar, Dr. Mohammed Al Bahi .

بسم الله الرحمن الرحيم

(المقدمـــة)

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وفصاحة اللسان، وبعد :

يتميز فن الأدب عن غيره بتعدد فنونه ورحابة ألوانه، فدوحتُه فساح ، وأُفْنُونه رَدَاح ، يُلقي بمتعته على من ألقى نفسه في رياضه، وتنزه بين لألائه، ويعد فن السيرة الذاتية أحد الفنون الأدبية التي تهب دارسها أو قارئها متعة خاصة، حيث تأخذ به إلى عالم آخر أرحب، عالم خاص بصاحب السيرة المُدونة، بعد أن باح لقارئه بمكنون فكره، وشوارد ذكرياته، وغوامض ذاته، فيدهش القارئ لتجاربه وأعماله، ويعجب بإنجازاته، ويشيد بما قدمه لأمته لاسيما إن كان صاحب السيرة قدوة مؤثرة، وربما تلبست القارئ حالة امتزاج روحي تصل به إلى حد التفاعل التام مع الأحداث التي وقعت لصاحب السيرة؛ فيفرح لفرحه، ويأسى لمصابه.

وقدر الله لي أن أقتني كتاب " حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ.. ووزير"، للدكتور محمد البَهِيّ تـ ١٩٨٢م، أحد أعلام الأزهر، وأبرز رجاله في العصر الحديث، والحقيقة أن إعجابي بالكتاب أو بصاحبه – فَهُمَا في نظري سواء–، جذبني لقراءته مرات ومرات، بل وأغراني لتصنيفه أدبيًّا، ومحاولة كتابة دراسة جادة حوله، لإبداع الكاتب المنهجي في سرد الأحداث، وترتيب الأفكار، مع ما تميز به من دقة عباراته ووضوحها، خاصة وقد استشعرت الصدق في كلماته، والحرارة المنبثقة من العاطفة في عباراته، ووجدت أن عناصر النص الأدبي النثري من العاطفة، والأفكار، والخيال، والتعبير، متوفرة فيه؛ وهو ما دفعني لدراسته؛ ولأن الكِتَابَ لم يأخذ حظه من العناية، أو الدراسة النقدية، فلم أقف على دراسة – فيما أعلم– تناولته بالدرس النقدي قبل هذه الدراسة، إضافة إلى وجود رغبة ملحة في نفسي أن أكتب حول أحد فنون النثر، لا سيما أن دراساتي وبحوثي السابقة عنيت كلها بفن الشعر.

وتمثلت أبرز صعوبات البحث في كون الدراسة جديدة، لم يكتب أحد من الدارسين قبلي حول هذا الكِتَاب بوصفه فنًّا أدبيًّا – فيما أعلم–، كما أن أحداث سيرة الكاتب كثيرة ومتنوعة، امتدت إلى ما يربو على خمسة وستين عاما من عمره لكونه خط أول سطورها بذكر مسيرته التعليمية مذ كان عمره عشر سنوات، وهو ما يلزم منه كثرة أحداثها وأشخاصها، وتعدد أزمنتها وأماكنها داخل مصر وخارجها، وكذلك إشكالية التصنيف أو تحديد الجنس الأدبي، فأغلب من تكلم عن هذا الكتاب أطلق عليه "مذكرات" خلطا منه، أو جهلا بالمسمى النقدي الدقيق، فكان أن أخضعته للدرس العلمي المنهجي والموضوعي الذي يثبت كون الكتاب يندرج تحت فن السيرة الذاتية.

كما تمثلت بعض إشكاليات الدراسة في أسلوب التناول المنهجي أو الموضوعي لمادة الكتاب، أو اختيار المنهج المناسب لتحليل السيرة الذاتية، لا سيما أن فن السيرة الذاتية من فنون الأدب الجديدة، والمنفتحة على غيرها من فنون الأدب الأخرى، كالقصة والرواية مثلا، وهو انفتاح يصل لدرجة الامتزاج والتعالق؛ الأمر الذي نتج عنه فن جديد أطلق عليه النقاد مصطلح "الرواية السير ذاتية"، وبعد قراءات متعددة في هذا الجانب هداني الله أن أتناول السيرة الذاتية للدكتور البَهِي، من خلال عناصر السرد أو الحكاية؛ لأن السيرة فن حكائي في المقام الأول؛ كما كنت دقيقا –قدر الإمكان– في اختيار ألفاظ العنوان، فكلمة "ملامح السرد" مثلا، ردٌّ على مَن يقول إن الكاتب حينما كتب سيرته لم يتعمد فعل ذلك. وبالتالي فإن الدراسة تنصب على الوقوف على أبرز أو أظهر ملامح السرد الجمالية في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِي، مستعينا بالتحليل الفني لعناصره من أحداث، وأشخاص، وزمان، ومكان، ولغة، وأسلوب.

واقتضت طبيعة البحث أن تأتي الدراسة في مقدمة عَرَّفْتُ فيها بالموضوع وأهميته، ودوافع بحثه، وخطته، والمنهج الذي التزمته، وأبرز الصعوبات التي واجهتني أثناء كتابته، ثم جاء التمهيد واشتمل على أربعة محاور: الأول: عَرَّفْتُ فيه بالكاتب حياته ومؤلفاته، والثاني: تناولتُ فيه مفهوم السرد، بالتعريف والتحديد النقدي، والثالث: وقفت فيه مع السيرة الذاتية، وإشكالية المفهوم بوصفها جنسًا أدبيًّا مستقلا عن غيرها من الفنون الأدبية، والرابع: تناولت فيه كتاب " حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ..ووزير" للدكتور البَهِيّ، بالدرس من حيث نسبته إلى السيرة الذاتية، وإشكالية تداخل الألوان السيرية.

ثم جاءت الدراسة في فصلين: تناولت في الفصل الأول منها الإطار الفكري للسيرة الذاتية للكاتب، وجاء تحت عنوان: جمالية المضمون السردي في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ، ثم جاء الفصل الثاني: وفيه أشرت إلى أبرز ملامح السرد الفنية للسيرة الذاتية للكاتب، ثم جاءت الخاتمة وفيها ذكرت أبرز النتائج التي استنبطتها من خلال دراسة السيرة الذاتية للكاتب، وتحليلها. ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

وبعد فقد حاولت جهدي في هذه الدراسة أن أضيف لمكتبتنا الأدبية والنقدية طرحًا أدبيًّا ونقديًّا جديدًا، يتمثل في دراسة أحد فنون الأدب الممتدة والمتجددة، كما حاولت أن أؤدي واجبي الأكاديمي تجاه أحد أعلام أزهرنا الشريف، من خلال دراسة بعض نتاجه بصورة تتسم بالمنهج العلمي الرصين، وأرجو من الله –العلي القدير– أن أكون وفقت فيما رُمته، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، إنه حسبي ونعم الوكيل.

دكتور : محمد الدسوقي محمد إبراهيم غَبْن
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

التمهيد:

أولا : الكاتب حياته، ومؤلفاته:

التعريف بالكاتب: [١]

الكاتب (١٣٢٣-١٤٠٢هـ / ١٩٠٥-١٩٨٢م).

محمد محمد عامر البَهِيّ قرقر من مواليد محافظة البحيرة، ولد في قرية أسمانية مركز شبراخيت، يوم الخميس في الثالث من شهر أغسطس عام خمسة وتسعمائة وألف من الميلاد. [٢]

تعليمه:

على عادة أهل القرى في مراحل التعليم الأولى في تلك الحقبة الزمنية ألحقه أبوه بكُتَّاب القرية حتى حفظ القرآن الكريم في سن العاشرة، ثم ذهب إلى "دسوق" في سن الحادية عشرة لتجويده، ثم التحق "بمعهد دسوق الديني"، ثم "معهد الإسكندرية الديني" فأنهى فيه المرحلة الثانوية، وكان ترتيبه الأول على المعهد، والثامن على معاهد الجمهورية، ثم انتقل إلى رحاب الجامع الأزهر بالقاهرة ليلتحق بالقسم العالي بالأزهر، وبعد شهرين من الدراسة النظامية عمل على شطب اسمه من القسم العالي ليتقدم إلى اختبار العالمية مباشرة، وكان المتقدمون لهذا الامتحان يبلغ عددهم أربعمائة طالب، لينجح منهم أربعة فقط كان كاتبنا الأول عليهم، وفي هذا دلالة على نبوغه المبكر، وتفوقه على أقرانه، وجديته في طلب العلم، واغتنام سني عمره الأولى في تحصيل العلوم، والحرص على النافع المفيد، والابتعاد عن حياة اللهو والعبث المضيعة للأعمار. ثم تقدم إلى قسم التخصص في شعبة البلاغة والأدب، ودرس فيه ثلاث سنوات ليحصل على درجة التخصص، بعد أن تقدم ببحثه المعنون بـ "أثر الفكر الإغريقي في الأدب العربي نثرا ونظما"، وذلك في أغسطس عام واحد وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد، وقد بلغ سِنُّه وقتها خمسة وعشرين عامًا، كما كان نبوغه سببًا في أن يحصل على بعثة إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة، من مجلس مديرية البحيرة، منحة منها للنابغين

---

[١] وردت للكاتب تراجم كثيرة وإن اعتمد أغلبها على ترجمة الكاتب لنفسه في كتابه: " حياتي في رحاب الأزهر، طالب.. وأستاذ.. ووزير" موضوع الدراسة، الناشر مكتبة وهبة، ط الأولى ، ١٩٨٣م، ولعل أهمها وأوفاها : تتمة الأعلام للزركلي: محمد خير رمضان يوسف، ط دار ابن حزم، بيروت، ط الثانية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، جـ١، صـ١٦٩، ١٧٠، والنهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الدكتور: محمد رجب البيومي، الناشر: دار القلم – الدار الشامية، سنة النشر: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، جـ٣، صـ٣٤٧، ومن أعلام الفكر الإسلامي الحديث، د/ محمود زقزوق، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، صـ٩٧، ومقدمة كتاب " العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د/ البهي، تقديم د/ إبراهيم الهدهد، هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة ١٤٤٠هـ/ يوليو ٢٠١٩م،.. وغير ذلك كثير.

[٢] مقدمة كتاب " العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق"، تقديم د/ إبراهيم الهدهد، صـ ٣.

من أبنائها؛ إحياء لذكرى الشيخ محمد عبده، فسافر في سبتمبر عام واحد وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد، وحصل على الدكتوراه من جامعة هامبورج بدرجة ممتاز في الفلسفة وعلم النفس والدراسات الإسلامية، عام ست وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد، عن رسالته " الشيخ محمد عبده والتربية القومية في مصر"، ثم عاد إلى مصر عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة وألف ليبدأ حياته العمليه، وتدرجه في وظائف الأزهر. [١]

وظائفه، وأعماله :

بدأ الدكتور البَهِيّ أولى وظائفه بعد العودة من بعثته وحصوله على الدكتوراه، مدرسا للفلسفة وعلم النفس في كلية أصول الدين لعامين، ثم نقل بعدها إلى كلية اللغة العربية ليشتغل بها أستاذا لتدريس الفلسفة، ثم رئيسا بقسم الدراسات الفلسفية بالكلية نفسها، وكان نظام التدريس بالكلية المعمول به وقتها أنها تنقسم إلى شعبتين؛ شعبة العلوم اللغوية، وشعبة العلوم الفلسفية. وكان يباشر بجوار وظيفته مراقب البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر، إلى أن تولى منصب أول مدير لجامعة الأزهر عام واحد وستين وتسعمائة وألف من الميلاد، ولم يستمر بها طويلا ليعين بعدها وزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر في سبتمبر عام اثنين وستين وتسعمائة وألف، ليخرج بعد عامين منها مع أول تعديل وزاري، ثم يعود مرة أخرى مديرًا لجامعة الأزهر، ليستقيل بعدها مباشرة من الوظيفة مُؤثرًا التدريس وتعليم طلاب العلم على الوظائف الإدارية، ليعين أستاذا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، حتى بلغ الستين من عمره، ثم أصرَّ على تسوية معاشه بعد أن عرضت عليه وظائف عديدة ومغرية يتمناها الكثير، ليتفرغ للكتابة والتأليف، حتى وافته منيته في العاشر من سبتمبر عام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف من الميلاد عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما بعد رحلة حافلة بالعطاء والكفاح والجهاد.[٢]

نتاجه العلمي، والفكري:

تميز الدكتور البَهِي بتوجهه إلى التأليف والكتابة منذ نعومة أظفاره، وحرصه على ذلك في شغله وفراغه، فقاربت مؤلفاته السبعين مؤلفا، دار معظمها حول الدفاع عن الإسلام، وشرح مبادئه ضد خصومه، والرد على شبهات المستشرقين أو المستغربين من أبناء جلدتنا، فقد كان متأثرا بآراء الشيخين جمال الدين الأفغاني تـ ١٨٩٧م، ومحمد عبده تـ ١٩٠٥م وأفكارهما، فغطى بكتاباته تاريخ الفكر الإسلامي منذ نشأته حتى وقتنا الحاضر،[٣] وله تفسير آي القرآن الكريم بمنهج تفرد به عن

---

[١] تتمة الأعلام للزركلي: محمد خير رمضان يوسف، جـ١، صـ١٦٩، ومن أعلام الفكر الإسلامي الحديث، د/ محمود زقزوق، صـ٩٧.

[٢] مقدمة كتاب " العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، تقديم د/ إبراهيم الهدهد، صـ ٣، ٤، وما بعدهما.

[٣] تتمة الأعلام للزركلي: محمد خير رمضان يوسف، جـ١، صـ١٧٠.

كثير من المفسرين، حيث تناول السور المكية بالتفسير الموضوعي، والذي لم يلتزم فيه ترتيب السور، وإنما كان معنيا بعقيدة التوحيد، ومواجهة المادية الجاهلية للتوحيد،[١] فقد كتب –رحمه الله– من الكتب ثلاثة وعشرين كتابا بلغ عدد صفحاتها (٥٦٣٦) صفحة من القطع الكبير، ومن الرسائل اثنتين وعشرين رسالة بلغ عدد صفحاتها (٧٠٠) صفحة من القطع المتوسط، ومن سلسلة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أربعة وعشرين كتابا بلغ عدد صفحاتها (١٧١٠). [٢] ويعد كتابه (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) أبرز مؤلفاته، والذي كان سببا في شهرته في العالم العربي والإسلامي. وعنه يقول الدكتور محمد رجب البيومي تـ٢٠١١م –رحمه الله – : "وإذا كانت مؤلفاته قد جاوزت السبعين فإن واحدًا منها قد نال من الحظوة لدى الدارسين ما جعله مصدرًا أوليًّا في موضوعه، وما أتاح له الانتشار في شتى ربوع الإسلام عن طريق الترجمات المختلفة، هذا الكتاب الذائع ذو الشهرة المستفيضة هو (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) .."،[٣] وطبع هذا الكتاب للمرة الأولى عام ١٩٥٧م، ثم توالت طبعاته، وإن كانت أهم مؤلفاته المبكرة في الفلسفة الإسلامية كتابه " الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي" طبعة ١٩٤٨م. ومن أشهر مؤلفاته إضافة إلى ما سبق:

أولا: **من الكتب** : الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر.. مشكلات الحكم والتوجه، والفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر.. مشكلات الأسرة والتكافل، والإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وتهافت الفكر المادي التاريخي.. بين النظرية والتطبيق، وغيوم تحجب الإسلام... إلخ هذه الكتب التي بلغت ثلاثة وعشرين كتابا.

ثانيا: **من الرسائل الصغيرة** : القرآن في مواجهة المادية، وهيمنة القرآن، والإسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة، والإسلام والاقتصاد، العلمانية.. وتطبيقها في الإسلام، الإسلام كنظام للحياة.. إلخ هذه الرسائل التي بلغت اثنتين وعشرين رسالة.

ثالثا: **من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم:** تفسير سورة النساء، تفسير سورة الأعراف، تفسير سورة هود، تفسير سورة الرعد ... إلخ السور الكريمة التي فسرها، والتى بلغت مؤلفاته فيها أربعة وعشرين كتابا. [٤]

وبعد، فهذا تعريف موجز بصاحب السيرة، وكل ما سيأتي في ثنايا البحث يعد ترجمة ضافية له، من خلال ما سجله عن نفسه في سيرته الذاتية، وهو ما سوف يظهر في صفحات البحث.

---

[١] مقدمة كتاب " العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، تقديم د/ إبراهيم الهدهد، صـ ٩، ١٠.

[٢] مقدمة كتاب " حياتي في رحاب الأزهر..."، تقديم الناشر أ/ وهبة حسن وهبة، صاحب مكتبة وهبة، صـ ٢١، ٢٢.

[٣] النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، جـ٣، صـ٣٥٤.

[٤] أحصت مكتبة وهبة – والتي اختصها المؤلف بنشر كتبه– جميع مؤلفاته في ملحق ذيلت به كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.." موضوع الدراسة من صـ١٤٧، إلى ١٥٠ .

ثانيا: السرد دلالة لغوية واصطلاحية:

أصبح مصطلح السرد من أشهر المصطلحات النقدية التي تدور على ألسنة النقاد والأدباء؛ لاسيما عند تناول بعض الأجناس الأدبية النثرية خاصة بالدرس والتحليل كالقصة، والرواية، والسيرة الذاتية، والمذكرات.. وإن امتدت إلى بعض الأجناس الأدبية الأخرى، فوجدنا لها حضورًا عند تحليل بعض ألوان الشعر كالشعر القصصي وغيره. (١)

أ: السرد في اللغة:

دارت مفردة أو مادة سَرَدَ في المعاجم العربية حول عدة معان أبرزها : " سَرَدَ القراءةَ والحديثَ يسرده سردًا أي: يتابع بعضه بعضًا ".(٢) وفي مختار الصحاح قال الرازي: " درع مَسْرُودة ومُسَرَّدة بالتشديد، فقيل: سَرْدُها نَسْجُها، وهو تداخل الحلق بعضها في بعض. وقيل: السَّرد، الثُّقب، والمسرودة: المثقوبة، وفلان يسرد الحديث سردًا، إذا كان جَيِّد السياق له. وسرد الصوم: تابعه. وقولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد: أي متتابعة".(٣)

وفي لسان العرب: " تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعًا، وسرد الحديث ونحوه، يسرده سردًا: إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردًا: إذا كان جيد السياق له".(٤)

فمن خلال ما سبق نخلص إلى أن معاني الكلمة لُغويًا ومعجميًّا تدور – في الأعم الأغلب – حول معاني ذكر الحديث وحكيه، وعدم إخفائه، وعدم السكوت أو الصمت أثناء الكلام، أو روايته بدقة متتابعا مع مراعاة الانتظام، وحسن الأداء، وجمال الاتساق، وهو ما ينسجم مع مورثنا الثقافي والفكري فـ " المتأمل في حركة الحياة العربية يكتشف السمات السردية في طبيعتها، حيث الميل إلى القص وذكر مآثر القبائل، والشخصيات التي تخلق أحداثا، والأحداث التي تشكل فترات تاريخية طويلة، ذات ملامح خاصة ".(٥) الأمر الذي يثبت ثراء أمتنا، وامتداد معارفها، وعمق تراثها.

---

(١) من الدراسات التي تناولت السرد في الشعر ينظر: البنية السردية في النص الشعري، د/ محمد زيدان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية شهرية، رقم (١٤٩)، أغسطس ٢٠٠٤م ، وآليات السرد في الشعر العربي المعاصر، د/ عبد الناصر هلال، الناشر مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٦م.

(٢) العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط دار الكتب العلمية بيروت، الأولى ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ، ج ٢ صـ٢٣٥.

(٣) مختار الصحاح للرازي، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ط مكتبة لبنان بيروت، ١٩٨٦م، مادة سرد صـ ١٢٤.

(٤) لسان العرب: ابن منظور، ط بيروت، ٢٠٠٠م، مادة سرد، صـ٢١١.

(٥) آليات السرد في الشعر العربي المعاصر، د/عبد الناصر هلال، صـ٢٦.

ب: السرد اصطلاحا:

تعددت التعريفات الاصطلاحية لمفهوم السرد بوصفه مصطلحًا نقديًّا، – وإن لم تبتعد كثيرًا عن المعنى اللغوي للكلمة – ومن ذلك: أن " السرد هو المصطلح العام الذي يشتمل على قَصِّ حَدَث أو أحداث، أو خبر أو أخبار، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة، أم من ابتكار الخيال"[١]. وبهذا يكون السرد هو الحكي أو القص عمومًا بمجرد الإخبار عن أمر ما أيًّا كان: موقفًا، أو حدثًا، أو خبرًا، حقيقة، أو خيالا.

ومن النقاد من نظر إليه بوصفه الطريقة أو العملية التي يتخيرها الراوي أو القاص لنقل حكايته فقيل: " السرد يعني الكيفية التي تروي بها الرواية، أو هو عرض موجه بوساطة اللغة المكتوبة لمجموعة من الحوادث والشخصيات"،[٢] ولعل هذا التعريف مأخوذ من حديث الناقد الفرنسي "جيرار جينيت" عن السرد بأنه: " العملية التي يقوم بها السارد أو الحاكي – أو الراوي– وينتج عنها النص القصصي المشتمل على اللفظ – أي الخطاب– القصصي والحكاية – أي الملفوظ– القصصي".[٣]

ومن النقاد من يحاول أن يكون أكثر دقة في تجلية مفهوم السرد فينظر إلى بنائه الفني، يقول: "يقوم المفهوم الاصطلاحي على أن السرد يعني وجود أساسين في النص، الراوي "السارد"، والحدث "الفعل"، وقد يقصد بالحدث –هنا– فعلا حكائيا عاما، أو قد يكون هو فعل الحكي نفسه " السرد".[٤]

فالسرد إذا مصطلح نقدي يقصد به: " نقل الحادثة من صورتها الواقعية، إلى صورة لغوية".[٥]

وثمة أمر مهم ينبغي الالتفات إليه، عند الحديث عن السرد، لاسيما عند محاولة تحليل النص الأدبي سرديا؛ وهو مراعاة الجانب الفني أو الجمالي لهذا المصطلح كما نبه على ذلك أحد النقاد عند حديثه عن السرد بقوله: " ولكن السرد الفني لا يكتفي عادة بالأفعال، كما يحدث في كتابة التاريخ، بل نلاحظ دائما أن السرد الفني يستخدم العنصر النفسي الذي يصور به هذه الأفعال.. وهذا من شأنه أن يكسب السرد حيوية، ويجعله لذلك فنيا"،[٦] وهذا المفهوم يأخذ بنا للحديث عن ماهية دراسة السرد للنصوص الأدبية.

---

[١] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبة وكامل المهندس، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٦م، صـ١٩٨.

[٢] دراسات في تعدي النص، وليد الخشاب، ط المجلس الأعلى للثقافة، مطابع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (د– ت)، صـ٧٦.

[٣] مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، سمير المرزوقي وآخرون، ط دار الشؤون الثقافية بغداد، ١٩٨٦م، صـ٧٣، ٧٤.

[٤] البنية السردية في النص الشعري، د/ محمد زيدان، (م– س)، صـ١٦.

[٥] الأدب وفنونه، دراسة ونقد، د/ عز الدين إسماعيل، ط ٩، دار الفكر العربي، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، صـ١٠٤.

[٦] المرجع السابق، صـ١٠٥ .

من المقرر نقديا أن لكل نظرية من نظريات الدرس الأدبي النقدي غاية تهدف لها، وتسعى من خلالها إلي خدمة النص، وقائله من جهة محاولة تقويم العمل، وتوجيه صاحبه للنموذج الأمثل في الفن؛ مع مراعاة إبراز جوانب الإجادة، فلم يعد حد النقد اليوم أو غايته إبراز مساوئ النص أو مواضع الإخفاق، بقدر ما يظهر من مواضع الحسن والإجادة، وتعليل ذلك ما أمكن، ومحاولة وضع التقاليد الفنية التي ينبغي أن يراعيها المبدع أثناء عملية الإبداع، وألَّا يفقدها النص، وهذا ما وجدناه عند النقاد الذين عنوا بالتنظير للدرس السردي، فكان" من صلب اهتمام السردية الانصراف إلى وصف المادة الحكائية التي يشكلها السرد.. فهذا جزء من جهودها الهادفة إلى استنباط قواعد للخطابات السردية علها تفلح في تأسيس نظم ترسم الاتجاهات العامة لمسارات المتون الحكائية من ناحية ترتيب الأحداث. وقد اتخذت بحوث السرديين اتجاهين رئيسين: أولهما عني بالمستويات البنائية للخطاب.. ، وثانيهما اهتم بالمستويات الدلالية للخطاب.. ، فالمادة الحكائية متن مصوغ صوغا سرديا، وهي خلاصة تمازج العناصر الفنية الأساسية : الحدث، الشخصية، والخلفية الزمانية، والمكانية، بواسطة السرد". [١] وبهذا فإن السرد أو النظريات السردية تسعى لخدمة البنية الحكائية من خلال دراستها واستنباط سماتها الفنية أسلوبيا ودلاليا، ومعالجة الخصائص الفنية التي يتكون من خلالها العمل، وذلك بالوقوف مع ما امتاز به كل عنصر على حدة، وما تفرد به هذا الراوي عن غيره بما أداه من وظائف وأساليب أثناء عمله – شفهيا كان أو كتابيا– ، كما يظهر للقارئ والمستمع ضرورة وعي السارد بما يسرده من أعمال حكائية، مما يسهم في جودة العمل والارتقاء به، ووصوله لمرحلة النضج الفني، وتلك أجل غايات الدرس النقدي السردي.

ثالثا: السيرة الذاتية، وإشكالية المفهوم بوصفها جنسًا أدبيًّا مستقلا:

دُوِّنت التراجم والسير في أمتنا العربية والإسلامية على امتداد عصورها ضمن ما دون من علومها، وليس أدل على ذلك من هذا الكم الهائل الموروث من التراجم والسير، وكان لهذا التدوين دوافع كثيرة منها ما هو تاريخي يهدف إلى حفظ التاريخ والأحداث، أو مآثر القوم ليس إلا؛ كما رأينا في أيام العرب والحديث عن فرسانها، وربما سُجلت السيرة بدافع ديني أو خُلُقي كما رأينا في سيرة النبي محمد (ﷺ)، والتي رأى المؤرخون أنها صورة من صور حفظ السنة، وقد يكون بدافع علمي كما رأينا في تراجم علم الرجال وغيرهم لارتباطها بعلم الحديث والجرح والتعديل، وربما كان ذلك بدافع الإمتاع كما جاء في سيرة جحا وغيره من ألوان الأدب الشعبي، وهذا كله يدل دلالة قاطعة على معرفة أمتنا لهذا العلم، الذي أصبح بعد ذلك فنا معتبرا أطلق عليه فن السيرة الذاتية، فن له تقاليده وخصائصه التي تميزه، وتمثل ذلك فيما وصل إلينا من منجزات سيرية متعددة في

---

[١] موسوعة السرد العربي، د/ عبد الله إبراهيم، توزيع قنديل للطباعة والنشر، دبي، ط الأولى ٢٠١٦م، جـ١، صـ١٤.

العصر الحديث أبرزها "الأيام" للدكتور طه حسين الذي صدر جزؤه الأول عام ١٩٢٩م، ثم صدر جزآه الثاني والثالث على فترات متباعدة، ويتلوه تاريخيا "زهرة العمر" لتوفيق الحكيم ١٩٤٣م، ثم توالت السِّيَر كـ "حياتي" لأحمد أمين الذي صدر في منتصف١٩٥٠م، و"حياة قلم" لعباس محمود العقاد الذي نشر الفصل الأول منه ١٩٥٧م وغير ذلك، وهذه الكتابات السيرية الغزيرة وُجِدَتْ نتيجة لتلاقح الثقافات، والاطلاع على آداب الغرب، كما أكد ذلك الدكتور إحسان عباس تـ ٢٠٠٣م في قوله: "ظل أكثر السير في العالم الإسلامي مجموعة من الأخبار المأثورة أو المشاهدات، ليس فيها وحدة البناء ولا الإحساس بالتطور الزمني، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة، وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام، ودون محتوى وافٍ كامل، حتى العصر الحديث، حيث واجهت بعض التغير في القاعدة والطريقة، وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية"،[١] وهذا ما يأخذ بأيدينا للحديث عن هذا اللون الفني من الترجمة والتأريخ لحياة الأشخاص – السيرة الذاتية – بوصفه جنسًا أدبيًّا له تقاليده المعتبرة فنيا عند المبدعين والنقاد.

أ: مفهوم السيرة لغة:

كلمة سيرة مأخوذة من مادة سَيَرَ وفي اللسان " السِّيْرَةُ الطَّرِيْقَة. يقال: سَار بهم سيرة حسنة، والسِّيْرَة الهيئة، وفي التنزيل قَالَ تَعَالَىٰ:﴿..سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٢١]. وسير سيرة حدث أحاديث الأوائل.."،[٢] وجاء في القاموس المحيط: " والسِّيرةُ بالكسر: السُّنَّةُ، والطريقة، والهيئة..". [٣] وفي المعجم الوسيط: " السيرة: السُّنَّةُ، والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره. والسيرة النبوية، وكتب السير: مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة، وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك ، ويقال: قرأتُ سيرةَ فلانٍ: تاريخ حياته ".[٤] إذا فدلالة الكلمة معجميًّا تدور حول الطريقة، والهيئة، وذكر الأحاديث لاسيما أحاديث الأوئل.

ب: السيرة الذاتية اصطلاحًا:

تعد السيرة الذاتية من أكثر الأجناس الأدبية التي أثارت إشكالات كثيرة بين النقاد في تحديد المصطلح الفني الدقيق، ومحاولة وضع ضوابطه من خلال تعريف جامع لأصولها؛ وذلك لارتباطها وقربها بل وتداخلها مع الكثير من الأجناس الأدبية الأخرى، وتولدها من بعضها كالترجمة، لذا يحسن بنا قبل تعريف السيرة الذاتية بوصفها مصطلحًا يطلق على أحد الأجناس

---

[١] فن السيرة، د/ إحسان عباس، ط دار صادر بيروت، ط١، ١٩٩٦م، صـ٣٥.

[٢] لسان العرب لابن منظور، (م ، س)، مادة سَيَر.

[٣] القاموس المحيط للفيروز آبادي الشيرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٥م، صـ١٢٠.

[٤] المعجم الوسيط، ط مجمع اللغة العربية، ط ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م، جـ ١، مادة سار، صـ٤٦٧.

الأدبية المستقلة أن نشير أولا إلى أنها لون من ألوان الترجمة، بل هي وثيقة الصلة بهذا الفن نشأة وتطورًا؛ ومن ثم كانت هناك محاولات جادة لبعض النقاد للتفريق بينهما، من خلال وضع خطوط فاصلة بين الفنين ليتميز كل جنس منهما عن الآخر، وكان أبرزها: أن " الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نَفَسُ الكاتبِ فيها، فإذا ما طال النَّفَسُ واتَّسَعَتْ التَّرْجَمَةُ سميت سيرة".[١] إذا فالتفريق بينهما من جهة الكَمّ الكتابي المسجل عن الشخصية، فإن قصرت أخباره والتزم الكاتب فيها جانب الإيجاز، وأوردها في صورة خبر أو نُبَذ فهي ترجمة، وإن طالت وسجلت الكثير من الأخبار والأحداث عبر مراحل حياته فهي سيرة.

فالسيرة الذاتية: هي " فن الحديث عن الذات من جميع أطرافها بعيوبها ومحاسنها، وتأثرها بالبيئة والوسط والظروف الخارجية، وتأثيرها فيها".[٢] ولعل أبرز ما في هذا التعريف أنها فن، ولكنه فن من نوع خاص يتصل بالحديث عن الذات من جميع جوانبها لأنها بمثابة " حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة".[٣]

ولأن السيرة الذاتية تتداخل مع أجناس أخرى تقوم على الحكي والحديث عن حياة الشخص، كالمذكرات الشخصية، واليوميات فهناك من تعمد التنبيه إلى مثل هذا أثناء التعريف بها فقال السيرة الذاتية هي: " كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجا عن المذكرات، أو اليوميات".[٤]

وأرى أن تعريف الأديب محمد عبد الغني حسن تـ١٩٨٥م، للسيرة الذاتية من أجمع التعريفات وأوضحها، يقول: "السيرة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخه، فيسجل أخباره ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته.."،[٥] فحينما يدون الكاتب أو السارد سيرته بنفسه فهي سيرة ذاتية، وحيث كتبها غيره فهي سيرة غيرية، وينبغي أن يراعي تسجيل أخباره، وسرد أعماله عبر مراحل عمره المختلفة من طفولته،

---

(١) التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ط دار المعارف، ط الثالثة، ١٩٨٠م، صـ٢٨.

(٢) فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، د/عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، ط دار السعادة، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، صـ١٣٥.

(٣) السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة: عمر حلي، ط المركز الثقافي العربي بيروت، ط١، ١٩٩٤م، صـ٢٢.

(٤) المعجم الأدبي، تأليف جبور عبد النور، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط الثانية، ١٩٨٤م، صـ١٤٣.

(٥) التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، (م- س)، صـ٣.

حتى كهولته مرورا بمرحلة الشباب، وبهذا تتميز عن المذكرات، أو اليوميات التي تسجل لأحداث يومية منقطعة الصلة عن أية نشأة أو كهولة أو تطور.

وكما عني النقاد بتعريف هذا الجنس الأدبي، عنوا بالبحث عن دوافع كتابته أو ما يهدف إليه الكاتب من وراء كتابة سيرته الذاتية، لأن الكاتب ما فكر أن يكتب إلا " لغاية يهدف من وراء كتابتها إما توكيدًا للذَّات، أو تنفيسا عن انفعالات أو حالة نفسية ألمت به، أو تبريرًا لموقف غير مستساغ صدر منه، أو دفاعا عن قضية فكرية أو اجتماعية آمن بها"،(١) وهذه الأمور كلها أمور خاصة داخلية أي نابعة من الذات، " وقد تكتب السيرة الذاتية لدوافع خارجية، وهذه الدوافع تتمثل في تعليم الآخرين وتوجيههم، وذلك عندما يرى كاتب السيرة أن حياته تصلح لأن تكون عبرة للآخرين".(٢)

وَأَيًّا كانت دوافع كتابة السيرة الذاتية فإن " السيرة الذاتية ليست إلا شكلا من أشكال السرد، وككل أشكال السرد للسيرة الذاتية مؤلف يكتبها، وسارد يسردها، وقارئ فضولي يقرؤها".(٣)

ولعل من الجوانب المهمة التي ينبغي للناقد الفاحص أن يقف معها بشيء من التأمل والتحليل عند الحديث عن السيرة الذاتية؛ ضرورة البحث عن فنية هذا اللون من الكتابة بوصفه جنسا أدبيا، أو بتعبير آخر ما هي التقاليد الفنية التي يحتكم إليها النقاد عند فحص هذه الكتابات السيرية ؟.

ومن خلال ما وقفت عليه من آراء نقدية اتفقت عند البعض، وتغايرت عند البعض الآخر – وإن تقاربت في مجملها– أرى أن أوضحها وأدقها قول الدكتور إحسان عباس: " إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هي أدب تفسيري، .. فصاحبه معني بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق، وهو كالروائي والقاص أيضا، يحاول أن يكشف عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة، وصراعه مع الناس الآخرين ومع نفسه وهو يحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة، .. ولا بأس إذا وضع شيئا من الحرارة في الحوار الذي يجريه في السيرة، فذلك مع البناء العام لها، كفيل أحيانا أن يحقق الخطة المؤثرة، وأن يثير العطف على بطل السيرة..". (٤) فهذا النص النقدي يجعل من اليسير على الناقد أن يحكم على الكتابات السيرية بفنيتها، أو انعتاقها من ربقة الفن.

---

(١) السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث: رؤية نقدية، شعبان عبد الحكيم محمد، ط دار العلم والإيمان للنشر، ٢٠٠٩م، صـ١٠.

(٢) السيرة الذاتية في الأدب العربي : فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا، وإحسان عباس، نموذجا، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٢م، صـ٢٦.

(٣) عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، محمد الباردي، ط اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠٠٥م، صـ٥٨.

(٤) فن السيرة، د/ إحسان عباس، (م، س)، صـ٨٥.

رابعا: كتاب " حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ.. ووزير" للدكتور محمد البَهِيّ، بين السيرة الذاتية، وإشكالية تداخل الألوان السيرية:

يدفعنا الحديث –عن السيرة الذاتية وفنيتها– إلى محاولة عمل مقاربة نقدية للسيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ – رحمه الله– موضوع الدراسة – قبل التعرض لها بالدرس والتحليل– للحكم عليها بدخولها ضمن هذا الجنس الأدبي من غيره، وفي الوقت نفسه الحكم بفنيتها من خلال ما طرحه النقاد من رؤى نقدية خاصة بهذا الفن، ويسلتزم ذلك محاولة التعرف عليها، وتحليها تحليلا فنيا، نلتمس من خلاله هذه النقاط التي أثارها النقاد.

والحقيقة أن محاولة نسبة كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.." للدكتور محمد البَهِيّ، إلى فن السيرة الذاتية، كان من الأمور المحيرة لي نسبيا في بداية قراءتي له –لأسباب أذكرها في السطور التالية– حتى استقر رأيي واطمأنت نفسي إلى نسبته لفن السيرة الذاتية، والذي دعاني لذلك أمران:

أولهما: أن الدكتور البَهِيّ اقتصر في كتابه على سرد الجانب الكفاحي –العلمي والعملي– في مسيرة حياته منذ أن بدأ التعلم من الصغر وهو في سن العاشرة، إلى أخريات حياته، ولم يحدثنا مثلا عن بعض الأمور كقريته أو البيت الذي نشأ فيه، أو أمه وعدد إخوته وأقاربه باستفاضة.. وكان حديثه عنهم بالقدر الذي يتصل به في مراحل حياته العلمية والعملية.. وإن لم تخل السيرة من حديثه عن أبيه، وأبناء خاله، وزواجه، ومولد ابنته "نادية".. لكنه كان حديثا خاصا تفرد به الكاتب عن غيره من كُتَّاب السير.

ثانيهما: أن دار النشر التي تولت طباعة الكتاب ونشره أطلقت عليه "مذكرات"، في المقدمة التي وضعها الناشر للكتاب عند نشره بعد موت صاحبه، بينما وجدتُ صاحب مؤلف تتمة الأعلام يطلق عليه مصطلح "سيرة ذاتية"، بعد أن ذكر الكتاب ضمن التعريف بمؤلفات الراحل، وكذلك أطلق عليه الدكتور محمود زقزوق – عضو هيئة كبار العلماء ووزير الأوقاف الأسبق– وهو يقدم لإحدى مؤلفات الدكتور البهي، يقول: " وقبل وفاته بعامين كتب د.البهي سيرته الذاتية، وقد صدرت بعد وفاته بعنوان "حياتي في رحاب الأزهر: طالبا، وأستاذا، ووزيرا".."،[1] وهو ما دعاني أن أكون موضوعيا في النظر في هاتين الإشكاليتين قبل الإقدام على تصنيف الكتاب ودراسته، حتى اطمئنت نفسي –وبما لا يدع مجالا للشك– لنسبته لفن السيرة الذاتية بوصفها فنا معتبرًا له تقاليده الفنية الخاصة عند النقاد، وتبين لي أن الداعي لإطلاق كلمة "مذكرات" على الكتاب –مِنْ قِبَل الناشر– هو عدم التَّخَصُّص الدقيق في التمييز بين هذه الأجناس الأدبية المتشابهة والمتداخلة، كما

---

[1] مقدمة كتاب: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه، ضمن الأعمال الكاملة للدكتور البهي، ط موسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ط الأولى، ٢٠٢٢م، صـ٧.

فسرت ذلك أيضا بما كان شائعا على الألسنة في هذه الحقبة من ستينات وسبعينات وثمانينات القرن الماضي، التي طبع فيها الكثير من مذكرات القادة والسياسيين، وأغلبها عناوين تجارية جذابة هدفها الأول الإثارة والربح، كأن يقولوا مذكرات الرئيس الفلاني، أو وزير كذا، أو اعترافات فلان.. وغير ذلك مما تهدف دور النشر من ورائه إلى كثرة التوزيع، واستدرار الربح بأية صورة ممكنة.. ومن ثم فسوف تكون السطور التالية ردًّا موضوعيا على هاتين الإشكالتين التي فرضتهما الدراسة، وطبيعة البحث.

كتب الدكتور البهي كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.." قبيل وفاته بقليل في الفترة التي أطلق عليها أو عَنْوَنَها داخل كِتَابِه بـ "فترة العزلة"، وما بعدها بـ "مسرح الأحداث"، وفيها كان قد ابتعد تماما عن صخب الحياة، واعتكف في بيته، وأخذ يتأمل ويفكر ويكتب ويؤلف، يقول: ".. وطالبتُ نفسي طالما تصاحبني نعمة الله في الصحة: أن أمارس الفكر والكتابة، وفعلا كتبت كتبا ورسائل لم أكن أستطيع كتابتها من قبل لقصور الزمن لدي..." [١]، وبعد أن فرغ من كتابته قام بتسليمه لدار النشر بيده في بداية العام الذي قبض فيه، فقد جاء في مقدمة الناشر أنه سلمه الكتاب في أوائل ١٩٨٢م، وأخبره أنه يريد إخراجه للنشر،[٢] وبالفعل توفي الكاتب بعدها بشهور قليلة، وكانت وفاته في يوم الجمعة ٢٢من ذي القعدة سنة١٤٠٢هـ / الموافق ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٨٢م –رحمه الله رحمة واسعة– ومن ثم فلنا أن نقول إن الكاتب تعمد كتابة سيرته، كما أتيحت له الفرصة أن يسرد للقارئ أحداث حياته منذ نشأته حتى قبيل وفاته سردًا مفصلا، فما تركه أو لم يذكره فقد تعمده، ولعل مرجع ذلك إلى نظرة الكاتب الخاصة لبعض الأمور، فما أرد أن يطلع عليه قراءه سجله، وما رأى عدم جدواه لم يذكره أوتغافل عنه عمدًا؛ لكونه يرى أن هذه الأحداث لن تعود على القارئ بالنفع، وهو الأستاذ الكاتب المؤلف المعروف لدى القراء جميعا بكثرة مؤلفاته، وخصوصا فيما يخص الفكر الإسلامي.

كما أن كِتَاب "حياتي في رحاب الأزهر.." للدكتور البَهِيّ، لون خاص من ألوان السيرة الذاتية، التي تفردت بمنهج معين في سرد أحداث حياة صاحبه، لا نجده إلا عند أصناف خاصة من المفكرين من العلماء والكتاب أو الأدباء الذين لا يرون حياتهم إلا في إبداعهم، أو حياتهم العلمية والعملية خاصة؛ والتي كانت سببا في اتصالهم بالناس أو معرفتهم من خلالها، ومن ثم فإذا حاولوا أن يترجموا لحياتهم فلن يتصوروا أنفسهم في غير ما هم فيه، ولعل أقرب مثال لهذا اللون: السيرة الذاتية الخاصة بالكاتب الأديب العقاد – رحمه الله– والتي عنونها باسم "حياة قلم" ففي هذا الكتاب السيري يعرض العقاد لحياته الأدبية، والصحفية، والسياسية، والاجتماعية، وفيه " يتناول

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، للدكتور محمد البهي، صـ١٣٩.

[٢] ينظر: مقدمة "حياتي في رحاب الأزهر.. ، للدكتور محمد البهي، صـ٢٢.

الأحداث والتجارب والخبرات التي مرت به، وعاش فيها، أو عاش معها، وخاض من أجلها عدة معارك قلمية.. وجرت عليه ضروبًا من الأزمات والمصاعب والعنت.. فكانت "صناعة القلم" هي التي بدأ اشتغاله بها منذ سن السادسة عشرة هي أبرز ما في حياته، ولذا كانت "حياة قلمه" هي المحور الذي يدور عليه كلامه في هذا الكتاب.." ،[١] وهو ما يثبت وجود مثل هذا اللون من الكتابة السيرية، أو ذلك النمط الأسلوبي في تسجيل أحداث السيرة الذاتية.

وهكذا رأينا الدكتور البهي –رحمه الله – في سيرته يركز من بداية حياته على نشأته العلمية والروحية، وتكوينه الثقافي والعلمي في الأزهر، كما يسهب في ذكر أسماء المعلمين من أساتذته، والشخصيات التي تركت طابعها عليه وأثرها في نفسه، كما عدد لنا الكثير من الدور والأماكن التي استوطنها داخل مصر وخارجها، ووظائفه المتعددة، والأحداث التي وقعت له والشخصيات التي قابلها أو تعامل معها، وكان في ذلك يضع عناوين لكل مرحلة من مراحل حياته، كما سجل للقارئ وظائفه المتعددة في رحاب الأزهر مدرسا، وأستاذا بكليات جامعة الأزهر، ثم مديرا للجامعة، ثم وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر، وفي هذا كله يتناول الأحداث والتجارب والخبرات التي مرت به، وعايشها، وخاض من أجلها معارك، جَرَّتْ عليه ضروبا من الأزمات والمصاعب والعنت، كما ذكرنا سابقا في الحديث عن "حياة قلم" للعقاد، وإن كانت هنا هي "حَيَاةُ عَلَم" إن جاز لي أن أطلق عليه هذا الوصف.. [٢]

أما طريقة كتابته للسيرة وبنائه لأسلوب عرض أحداثها ومراحلها، فكانت أشبه بأسلوب المقالات، وكذلك كان العقاد في سيرته الذاتية وإن لم يتماثلا تماما في الأسلوب، فالدكتور البَهِيّ نوع بين الأسلوب التقريري الذي يقف عند حد الإخبار عند تسجيل الحدث –وهو الغالب–، وأسلوب التحليل والتفسير الذي يصل به أحيانا إلى درجة استبطان الذات، ولم يغلب الأسلوب الروائي أو التصويري على سيرته كما فعل الدكتور طه حسين في "الأيام"، ولكنه نوع بين الأسلوب القصصي التقريري، والتحليلي، فالظاهرة البارزة لكل من يقرأ كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.." للدكتور البهي هو رواية الخبر أو ذكر الحدث المتصل بحياته، الذي يعتمد على الحقائق، أو الوقائع التي عايشها في حياته، مع التزام الجانب التقريري في أغلبها، فهي صياغة قصصية في أبسط ما تكون، من حيث إنها لم تستعن بالتصوير كثيرا، وإن لم تفتقده تماما، كما اتسمت بالحوار في الكثير من سرد أحداثها، ولم تخل من الصراع في أغلب مراحل حياته، لاسيما مرحلة عمله مديرا لجامعة

---

[١] الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د/ يحي إبراهيم عبد الديم، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، صـ٢١٨.

[٢] من السير الذاتية التي قصرها أصحابها على حياتهم الإبداعية، (على مشارف الخمسين) لصلاح عبد الصبور، التي دَوَّنَ فيها تجربته الشعرية من بدايتها حتى وقوفه على أعتاب الخمسين، دون المساس بأية جوانب أخرى من حياته.

الأزهر، ووزيرا للأوقاف وشئون الأزهر، ولذا فإن طريقة السرد المتصل بالأحداث حسب مراحل عمره هي السمة الغالبة على سيرته، وأهم ما تميزت به تلك السيرة للكاتب، أنها جاءت متصلة الأحداث متلاحمة متناسقة الأجزاء يسلم كل جزء منها إلى الآخر؛ لأنه إما مبني عليه أو مقدمة له، كما أن أبرز ما يميزها ذاكرة الكاتب الحاضرة، التي ساعدته على تسجيل التواريخ بدقة يعجب لها القارئ، فغالبا ما يسجل التاريخ باليوم والشهر والعام، ولم أقرأ له مرة بعد كتابة تاريخ كلمة "تقريبا" مثلا، أو قوله: لا أذكر متى تحديدًا، وكذلك كان في ذكر أسماء الأماكن والشخصيات.

وثمة أمر مهم أحب أن أشير إليه في هذا الجانب؛ فخلال مطالعتي لكتاب " حياتي في رحاب الأزهر.." للدكتور البَهِي، تملكني شعور قوي دفعني أن أطالع سيرة الأستاذ أحمد أمين الذاتية "حياتي"، لما بينهما من تشابه في التسمية، مع الانتباه للفرق بين التسميتن فالأستاذ أحمد أمين جاءت تسميته مطلقة "حياتي"، أما كاتبنا فجاء عنوانه مقيدا أو مخصصا بلون خاص من الحياة، كما دعاني ذلك إلى الاطلاع عما كتب حول سيرة الأستاذ أحمد أمين من كتابات النقاد، وأرى أن كاتبنا كان متأثرًا بكتاب "حياتي" لأحمد أمين الذي صدرت طبعته الأولى عام١٩٥٠م، من جهة أن الكاتب التزم فيه الجانب التقريري، مع سرد الكثير من الأحداث التاريخية التي مر بها في حياته، –وقد كان معاصرًا له– ولعل التشابه في التسمية يكون دليلا أو شاهدًا على التزام المنهج نفسه، فلا نستبعد أن كاتبنا وهو الأستاذ الأزهري الموسوعي الثقافة، اطلع على كتاب الأستاذ أحمد أمين أولا، ثم تأثر بفكرته ثانيا، مما جعله يرتسم نهجه وأسلوبه، وإن خالفه في خطته وطريقته، فقد قسم أحمد أمين كتابه إلى فصول، بينما سرد كاتبنا سيرته بعناوين متصلة أشبه بمقالات متتابعة – كما ذكرت سلفا– والتي اقترب فيها من طريقة العقاد في "حياة قلم"، كما أن كاتبنا مزج بين أسلوب الكاتبين فأخذ من العقاد شيئا تمثل في جانب التحليل النفسي والتأمل الذي عرف به العقاد في مؤلفاته، ولِمَ لا وكاتبنا أستاذ الفلسفة وعلم النفس، كما أخذ من أحمد أمين جانب التقرير وطريقة السرد المتتالي للأحداث، وابتعد عن الجانب الروائي بدقته الفنية كما فعل الدكتور طه حسين، وإن لم تخل سيرته تماما من هذا الجانب بما توافر لها من بعض العناصر الفنية التي ستظهر عند التحليل، وبذلك لا أكون مبالغا إن قلت إن الدكتور البَهِي –رحمه الله– كان في سيرته نسيج وحده، في بنائه لهذه السيرة من أولها إلى آخرها، وفي أسلوبه، ونمط سرده للأحداث والتواريخ والشخصيات والأماكن، وما استعان به أحيانا من بعض عناصر القص الروائي كالحوار، والصرع...

كما اعتمدت في الحكم على فنية كتاب "حياتي في رحاب الأزهر.." للدكتور محمد البَهِي ونسبته لفن السيرة الذاتية – إضاقة لما ذكرته للدكتور إحسان عباس– على ما اعتمد عليه أغلب النقاد المعاصرين، من خلال تحقق الشروط التي سجلها الناقد الفرنسي "فيليب لوجون" في كتابه

"ميثاق السيرة الذاتية" عند تعريفه للسيرة الذاتية – والذي اعتبره حدا فاصلا بينها وبين غيرها من الأجناس المتداخلة– بأنها: " حكي استعادي نثري، يقوم به شخص حقيقي عن وجوده الخاص، مُرَكِّزًا على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة أخص".[١]

ثم أخذ يحلل هذا التعريف أو هذا الحد –كما أطلق عليه– بما لا يدع مجالا للبس فقال: " ويعرض هذا الحد عناصر.. ١: شكل اللغة : أ – حكي. ب– نثري. ٢: الموضوع المطروق : حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة. ٣: وضعية المؤلف: تطابق المؤلف والسارد. ٤: وضعية السارد: أ– تطابق السارد والشخصية الرئيسة. ب– منظور استعادي للحكي. ".[٢] ثم يقول: "ستكون السيرة الذاتية هي كل عمل يجمع في الوقت نفسه الشروط المشار إليها.. ولا تجمع الأنواع المشابهة للسيرة الذاتية كل هذه الشروط.." [٣]، ثم أخذ الكاتب يعرض للأنواع المشابهة التي لا تتحقق فيها كل هذه الشروط مجتمعة وإن تحقق في بعضها، كالمذكرات، والسيرة، والرواية الشخصية، وقصيدة السيرة الذاتية، واليوميات، والرسم الذاتي أو المقالة. وبهذا لم يدع هذا الناقد المدقق المتمرس، والمعروف بمؤلفاته المختلفة في هذا الفن مجالا للخلط بين هذا الجنس وغيره من الألوان المتشابهة، وإذا نظرنا في تطابق هذه الشروط وكتاب "حياتي في رحاب الأزهر.."، تبين توافرها جميعها دون نقص فيها، على النحو الآتي:

الشرط الأول : من جهة شكل اللغة "حكي، نثري"، جاءت السيرة الذاتية لكاتبنا في قالب نثري، فلم ينظم منها شيئا، كما فعل البعض فيما أطلق عليه قصيدة السيرة الذاتية،[٤] كما لم يستعن بأسلوب التضمين الأدبي لبعض الأبيات الشعرية، وسوف أشير لذلك عند التعرض لدراسة الأسلوب عند الكاتب.

الشرط الثاني: الموضوع المطروق : حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة. ركز الكاتب في سيرته على حياته الفردية، وتاريخ شخصيته، وكل ما سرده من أحداث أو شخصيات دار حوله، أو ارتبط به، أو صدر عنه. فكان متدرجا في سيرته من الطفولة وحتى الشيخوخة، ويؤكد ذلك ما سجله في ختام سيرته، فقد سرد الكاتب نصوصا تدلل على حكمة الشيخ المجرب الذي عرك الحياة وخبرها، حتى خرج منها بأفضل الدروس التي تحتم عليه الأمانة أن يسطرها لينتفع بها مَنْ بعده يقول: "وتجربتي من الحياة أن الباقي فعلا للإنسان على مدى العمر الطويل، هو إيمانه بالله، ووقوفه

---

(١) السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، (م– س)، صـ٢٢.

(٢) المرجع السابق ، صـ٢٢، ٢٣.

(٣) السابق نفسه.

(٤) من نماذج ذلك في أدبنا العربي المعاصر، سيرة الشاعر فاروق شوشة التي صاغها شعرًا في: "وجوه في الذاكرة"، و"أبوابُك شتى".

عنده، والزهد في متع الدنيا، وعدم انتظاره لمتعة من متعها، بل على العكس: ترقبه أحداثا يتغلب عليها بالصبر وحده"[١].

الشرط الثالث: التطابق الكلي بين الكاتب، والسارد، والشخصية، وهذا مُحَقَّقٌ في السيرة التي بين أيدينا من عنوانها إلى ختامها، فكل الأحداث كتبها صاحبها، وتولى سرد مراحل حياته وأخباره بنفسه، كما كان الشخصية الرئيسة "البطل" في كل ما حكى. وقد استعمل لذلك ضمير المتكلم " ضمير النفس أوالذات" بصوره المتعددة كما سيأتي معنا في ثنايا التحليل، التي نثبت من خلالها ما قام به هذا الضمير من وظائف متعددة أبرزها الوظيفة التفاعلية التفسيرية لأحداث حياته.

الشرط الرابع : كان أسلوب الحكي في السيرة الذاتية للكاتب حكيا استعاديا، اتكأ الكاتب فيه على الذاكرة، التي أدت دورًا مهمًّا في استرجاع أحداث حياته، بشخوصها وأزمنتها وأمكنتها المختلفة.

وبهذا يتبن أن كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.." للدكتور البَهِي تحققت فيه شروط السيرة الذاتية المعتبرة عند النقاد، وعلى رأسهم الناقد الفرنسي "فيليب لوجون" مما يعلي من شأن هذه السيرة ويجعلها جديرة بالدرس.

ومهما يكن من أمر فإن كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.. طالب.. وأستاذ.. ووزير" للدكتور محمد البَهِي سيرة ذاتية تنسب للكتابة الأدبية الفنية، من جهة أن السارد " الكاتب" تحدث فيها عن نفسه منذ طفولته أو نشأته التعليمية، وعن شخصيات حقيقية متعددة اتصل بها في حياته، وجرت بينهم أحداث، كما قامت على بناء زمني مرتب عبر مراحل حياته المتغيرة، مع وصف لمختلف الأمكنة بأبعادها، ومراعاة تعمده فعل ذلك عند الكتابة، لكنها نمط خاص –متطور– من ألوان السيرة الذاتية، انطلق فيها السارد من حب عميق وإخلاص شديد للمؤسسة التعليمية (الأزهر) الذي انتسب إليه منذ نعومة أظفاره، ومرورًا بمراحل تعليمه المختلفة، حتى وصل إلى أعلى الدرجات العلمية، وعمل في مؤسساته وتحمل أعباء العمل، ورأى فيه طموحه الذي لا تحده حدود فطمح إلى تطويره، و العمل الجاد على النهضة العلمية بطلابه، والتعليمية بوسائله ورجالاته، سيرة أقامها صاحبها على الحقيقة والتقرير والتفسير بعيدًا عن الخيال الجانح المغرق المغير للحقائق أحيانا، وكل ما سيأتي في فصلي البحث من خلال تحليل أبرز ملامح السرد المتعددة سواء على المستوى الفكري (الموضوعي)، أو المستوى الفني لكتاب "حياتي في رحاب الأزهر.."، سيؤكد توافر هذه الشروط وتطابقها مع سيرة كاتبنا.

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، للدكتور محمد البهي، صـ١٤٥.

الفصل الأول : جمالية المضمون السردي في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ:

الإطار الفكري:

في السطور التالية سوف أقوم بعرض سريع وموجز لمضمون كتاب " حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ.. ووزير" للدكتور محمد البَهِيّ – الذي سجل فيه أحداث حياته ومراحلها المختلفة والمتعددة فيما يربو على مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير – بوصفه سيرة ذاتية، بما يسهم في تحليلها فنيًّا في الفصل التالي لهذا الفصل:

النشأة :

بدأ الكاتب سيرته بوصف نشأته حينما أتم حفظ القرآن الكريم في سن العاشرة في كتاب القرية على يد الشيخ "محمد الديب"، ليرسله والده بعدها إلى "دسوق" ليجود القرآن الكريم على يد الشيخ "سيد الهواري" في صحبة ابن خاله الذي كان واعظا، وسكن معه في حجرة متواضعة.. ويذكر الكاتب في هذه المرحلة بعض الشخصيات والأحداث التي وقعت، ليصل بعدها إلى سن الثانية عشرة، فانتسب "للمعهد البرهامي" بدسوق، وبعدها بثلاث سنوات سافر إلى طنطا ليلتحق بمعهدها، ولم يطل به المقام طويلا فيها، حيث صدر قرار بتحويل أبناء البحيرة إلى "معهد الإسكندرية الديني"، ويصور الكاتب في هذه المرحلة حياته، وما تحلى به من جدية في طلب العلم، واحترامه لأساتذته، ويذكر أسماء من أثروا فيه، لاسيما مهارته في دراسة علم المعاني –أحد علوم البلاغة–، التي كان يحبها ويتقنها.

إلى الأزهر بالقاهرة :

ينتقل الكاتب بعد ذلك ليسرد للقارئ مرحلة أخرى من حياته، فبعد أن انتهي من إتمام المرحلة الثانوية "بمعهد الإسكندرية" وكان سنه وقتها بلغ الحادية والعشرين، انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر ليزور أول الأمر مقر الدراسة في القسم العالي بالأزهر، ويصف حال الدراسة بالأزهر في هذه الحقبة، الذي كان قائما على نظام الحلقات والأعمدة، وبعد سرد لبعض الأحداث التي وقعت له أول عهده بالأزهر، يحدثنا عن قرار مهم كان له أكبر الأثر في تغيير مجرى حياته فيما بعد، فقد قرر أن يترك الانتظام في دراسة السنوات الأربع بالقسم العالي، ليتقدم مباشرة للامتحان في الشهادة العالمية، ويأخذ في تصوير قدر ما عاناه في استعداده للامتحان للقبول بهذه المرحلة، الذي استمر لثمانية شهور متواصلة، كما يسرد للقارئ البرنامج الذي خَطَّه لنفسه للمذاكرة في هذه المرحلة، بداية من صلاة الفجر حتى انتهاء اليوم بغروب شمسه، والأماكن التي كان يتردد عليها للمذاكرة كمسجد الإمام " الحسين" –رضى الله عنه–، وأسماء الأساتذة الذين وقفوا بجواره في هذه الفترة، ويتقدم للامتحان في هذا العام أربعمائة طالب ينجح منهم أربعة فقط يكون ترتيبه الأول عليهم.

ولعل أبرز ما في هذه المرحلة من حياة الكاتب أنه يصور بقلمه نهج التعليم في الأزهر في هذه الحقبة التي عاصرها، وما كان عليه جيله من جدية في تحصيل العلم، وفي الجانب الآخر ما كان عليه مشايخ هذا المعهد العتيق من حزم وصرامة لا تقبل المساومة في التدريس أو التقييم في الاختبارات، فقد أمدنا بالكثير من أسماء المعلمين، وأسماء الكتب التي كانت تدرس لطلاب الأزهر، مما يعد بحق وثيقة تاريخية للأزهر ورجاله، كما سجل لنا انطباعاته عمن كان يزاملهم، أو يدرس له، أو يختبره أو تربطه به علاقة، وبذلك فإن الكاتب رسم للقارئ بريشته سيرته الذاتية مفصلة، واضحة المعالم مثلت حياته في هذه المرحلة خير تمثيل.

وأبرز ما يمكن أن نقف معه في هذه المرحلة أنه كثيرا ما كان يعرفنا بنفسه، وذلك من خلال الإشارة إلى بعض المواقف التي تبرز لنا خصائصه النفسية، وما انطوت عليه نفسه من عفة نفس، وعدم انشغاله بأمور الدنيا، أو التصارع على ملذاتها من طعام وشراب وغيره، مما كان يفعله أقرانه من الطلاب، ومن ذلك مثلا: تعمده عدم دخول بعض الاختبارات التي كان النجاح فيها مرتبطا بالحصول على مكافأة مالية، كالجراية، وشيءٍ من ريع صناديق النذور وغير ذلك، يقول في ثنايا حديثه عن السنوات الثلاث التي قضاها في معهد "دسوق" : " وقعت لي حادثة، ربما كان لها ذا أثر في حياتي فيما بعد، وهي أني في أول السنة التالية للسنة الأولى.. دخلت امتحان القرآن الذي كان مقررًا دخوله على جميع الطلاب كل عام في أول السنة الدراسية، ورسبت في حفظه، وطلب إليَّ أن أدخل الامتحان بعد أسبوع من الامتحان السابق، وكان يرأس الامتحان شيخ المعهد المرحوم الشيخ " عبد الهادي مخلوف" وكان متشددًا في إصراره على أن يتقن الطالب الأزهري حفظ القرآن –وكان على حق في ذلك– وربط النجاح فيه بحصة الطالب في الجراية، وبحصته في صندوق النذور، وبحصة ثالثة في التبرعات، –وبالأخص تبرعات السلطان حسين– وكانت تمثل هذه الحصص مبلغا لا بأس به في هذا الوقت. فلما عرفت أن الحصول على هذا المبلغ مرهون بالنجاح كل عام في حفظ القرآن الكريم؛ امتنعت عن أن أتقدم للامتحان، وبذلك سقط حقي فيما هو مقرر للطلاب جميعا، وعرف ذلك شيخ المعهد عني وحاول أن يرغبني في دخول الامتحان، ولكن آثرت موقفي السابق، رغم أني كنت أرى حصيلة المبالغ التي وصلت إلى ابن خالي وابن عمه معًا، وإشادة والده في القرية بما حصلا عليه من مال..". [١]

هذا النص يضعنا أمام العديد من التفسيرات، لعل أبرزها تصوير ما كانت تنطوي عليه نفس الكاتب من عفة وحياء منذ نعومة أظفاره، وما تميز به من عدم التكالب على الأمور المادية، فالاختبار المقرر اختبار في بداية العام الدراسي، إذا فهو خاص بأمر الجراية وليس النجاح أو

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٨.

التفوق الدراسي المخصص في نهاية العام. كما أن التلميذ أخبرنا سلفا منذ بداية سيرته أنه أتم حفظ القرآن في العاشرة، ثم أرسله والده إلى دسوق لتجويده، كما أنه مدح صنيع الشيخ في إصراره على أن يحفظ الطالب الأزهري القرآن الكريم، ويظهر ذلك من قوله في نعت الشيخ "مخلوف" وكان متشددًا في إصراره على أن يتقن الطالب الأزهري حفظ القرآن –وكان على حق في ذلك– ، إذا فأين المشكلة ؟! هي أن سياسة المعهد أو شيخه ربطت النجاح في اختبار القرآن الكريم في بداية العام الدراسي بحصة الطالب في الجراية، وبحصته في صندوق النذور، وبحصة ثالثة في التبرعات، وبالأخص تبرعات السلطان حسين.

ويأبى الكاتب بعد سرد هذا الموقف إلا أن يعلق على أثره في نفسه، ودروه المهم في تكوين شخصيته، وتشكيل توجهه فيما بعد فيقول : " ومن هذا الوقت اتجه ابن خالي إلى تقييم المال بأكثر من قيمته، بينما اتجهت أنا إلى دفع إغرائه عني مهما كانت الحاجة إليه، وساعدني في ذلك توجيه والدي لي في هذا الجانب، فكان لا يحدد لي مبلغا معينا، وكان لا يسألني عما أنفقه، فإذا ذكرت له رقما بالصدفة قلل من شأنه، وعاتبني على عدم الاهتمام برعاية نفسي، والسؤال الذي كان يردده لي: مدى تفوقي في الدراسة، ومدى تحصيلي في العلوم، وبذلك قوى اتجاهي منذ الصغر إلى مدى اهتمامي بالأمور الأخرى غير المادية ".[١]

وشبيه بهذا الموقف ما سرده الكاتب في موقف آخر بعد أن انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة للتعلم بالأزهر يقول: ".. وبعد الدرس الأول انصرف الطلاب إلى تسلم الجراية – وهي عدد من الأرغفة يختلف حسب " الأروقة " التي ينتسب إليها الطلاب – وكل طالب يتسلم جرايته يحجز منها ما يكفيه طوال اليوم، ثم يعرض الباقي للبيع، ولا أدري لماذا لم أتسلم جرايتي؟!، وقد كنت حزينا في نفسي للتغيير الذي طرأ على حياتي هنا في القاهرة .."[٢].

ومثل هذه المواقف التي سجلها الكاتب عن حياته تثبت لنا جانبا فنيًّا مهمًا؛ وهو أننا أمام سيرة ذاتية أدبية فنية متقنة؛ لأن الكاتب "السارد" لم يقف عند حد سرد الخبر وإنما تخطى ذلك بتحليله وبيان أثره على نفسه، مع ما تميزت به من صدق، فالكاتب لم يستنكف مثلا سرد خبر رسوبه في اختبار بداية العام لمادة القرآن الكريم، أو تصوير تعمده عدم دخول مثل هذا الاختبار في سنوات دراسته الثلاث بالمعهد البرهامي بدسوق، بل كان صريحا شجاعا، كما أنه بذلك يضيف إلى سيرته عنصر الحيوية، والتشويق في القص، الذي يجذب القارئ، ويجعله متفاعلا مع أحداث السيرة، وهو ما يثبت أننا أمام سيرة إنسان يشعر ويتأثر، ويتفاعل مع أحداث حياته في كل مرحلة من مراحلها المختلفة.

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٨.

[٢] المرجع السابق، صـ٣٢.

وقبل أن أنتهي من تحليل هذا الجانب الفكري من سيرة الكاتب الذاتية، أحب أن أذكر أن هذا المبدأ من عفاف النفس، أو هذا الأسلوب الذي رسمه الكاتب لنفسه منذ الصغر لازمه حتى الكبر، وأصبح مَعْلَمًا بارزًا في شخصيته، ففي مرحلة متقدمة من العمر –في موضع آخر من سيرته– يسجل الكاتب للقارئ موقفا شبيها بما ذكر آنفا، من عدم اعتداده بالأمور المادية وزهده فيها، يقول: "وطلب إليَّ – يقصد شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم– أن أقبل مكافأة شهرية على القيام بمهام مراقب عام الثقافة بالأزهر بالإضافة إلى أداء الوظيفة كأستاذ للفلسفة بكلية اللغة العربية، فاعتذرت عن المكافأة، وباشرت العمل كرسالة، ولما سألني عن السبب في عدم قبول المكافأة وأجبته بأن الأزهريين سيقولون: إني من أجل المكافأة وحدها أعمل مع شيخ الأزهر، وأنا لست في حاجة إليها، ومكتف بمرتب الوظيفة في الكلية، فقبلني ودعا لي بستر الله، وكنت شديد الحرص على عدم قبول أية مكافأة عن المشاركة في الامتحانات العامة، أو عن التدريس وإلقاء محاضرات إضافية، وأرى أن ذلك الطريق هو خير سبيل لاحتفاظ الإنسان بكرامته، وبحريته التامة في رفض أي عمل من شأنه أن يكافأ عليه، إذا وجد فيه ما يمس كرامته".[١] وهكذا يظهر لنا حسن تصوير الكاتب لخصائصه النفسية، وإعلام قارئه بمبادئه التي آمن بها، وعمل جاهدا على الحفاظ عليها.

مرحلة جديدة:

وبعد إعلان النتيجة ونجاحه في الشهادة العالمية، يرى الكاتب أنه حقق بذلك تفوقا كبيرا، كان له أكبر الأثر في توجيه حياته فيما بعد، وتمثل ذلك في أمرين:

الأول: أن الطلاب الحاصلين على العالمية بالأزهر كانوا يتوجهون لاختيار الدراسة في قسم "التخصص"، وكانت الدراسة تنقسم إلى عدة شعب – وقد وضعت تحت إشراف الشيخ "عبد المجيد سليم" مفتي الديار المصرية في هذا الوقت–، ولأن مبدأ الاختيار بين هذه الشعب كان يقوم على نظام الاختبار التحريري والشفوي، للمتقدمين من حملة الشهادة العالمية، فاختار الكاتب الدخول في شعبة " البلاغة والأدب "، ويسرد الكاتب في هذه المرحلة أسباب اختياره لهذه الشعبة، والتي استمرت الدراسة فيها لثلاث سنوات، وكذلك أسماء كبار الأساتذة الذين تولوا التدريس له في هذه الشعبة، أمثال: الشيخ " أمين الخولي"، وتوجيههم له في اختيار رسالته في السنة الثالثة، وكان موضوعها " أثر الفكر الإغريقي في الأدب العربي، نثرًا، ونظمًا".

الأمر الثاني: أن رئيس مجلس مديرية البحيرة أرسل إليه خطابا وهو في السنة الأخيرة، يخبره بأنه وقع عليه الاختيار في بعثة تخليد ذكرى المرحوم الشيخ " محمد عبده " في ألمانيا، ويطلب منه التوجه إلى اللجنة المؤلفة برياسة الشيخ "مصطفى عبد الرازق" بخصوص هذا الأمر، ثم يأخذ

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٦١.

الكاتب في سرد وقائع هذه المقابلة التي أجراها، وأسماء أعضائها، وما وجه إليه من أسئلة، وبعد أن استقر الاختيار عليه للبعثة أجل سفره إلى آخر سبتمبر ١٩٣١م، حتى ينتهي من اختبار السنة النهائية للتخصص، ليحصل على الشهادة بترتيب الثاني، وكان سنه وقتها بلغ الخامسة والعشرين.

إلى ألمانيا:

يبدأ الكاتب بوصف هذه المرحلة من حياته فيستهلها بشكر صنيع المرحوم " عبد السلام باشا الشاذلي" رئيس مجلس مديرية البحيرة، لما قدمه له ولزميله المبتعث معه من تكريم، تمثل في العمل على لقائهما بالملك " فؤاد " ، ويأخذ في وصف هذا اللقاء بصورة توحي باعتزازه بهذا اللقاء، وكذلك مقابلته لشيخ الجامع الأزهر ليلة سفره وكان الشيخ " محمد الأحمدى الظواهري" ويذكر ما دار بينهما من حوار، كما قابل وزير المعارف في هذا الوقت، وكذلك ما صنعه لهما من احتفالية جمع فيها أعيان المديرية وكبار موظفيها، كما كان سببا في سفريهما على الباخرة "فيكتوريا" التابعة للخطوط الإيطالية، وكانت تعد عروس البحر الأبيض المتوسط في هذا الوقت، يقول: " وهكذا أبى الشاذلي باشا إلا أن يكرم رجال " الأزهر" .." ،[١] ثم يأخذ الكاتب في وصف الرحلة، وما قابلاه فيها من صعوبة تمثلت في كونهما لا يعرفان شيئا عن اللغة الألمانية، وهو ما جعلهما يواجهان صعوبة في كل معاملة تتصل بهما، ويشير إلى إهمال موظفي السفارة المصرية بالخارج، وتكاسلهم في خدمة المبتعثين، إلى أن استقر "ببرلين" وحاول أن يعدل أموره بتعرفه على أحد المصريين هناك، ثم التحاقه بمعهد لتعلم اللغة الألمانية الملحق بجامعة "برلين" في هذا الوقت. وعلى طريقة الكاتب في نظرته الثاقبة للأمور، والوقوف معها بشيء من التحليل؛ لا ينسى أن يشير إلى بعض ظواهر الحياة الاجتماعية في "برلين"، يقول: " وفي السنة التي قضيتها في "برلين" كانت هناك ظاهرة عامة في الحياة الألمانية، وهي ظاهرة المتعطلين، وكانت أكثريتهم من الشباب المُسَرَّح من الجيش، من الجنود والضباط على السواء، وكانوا يمرون في الشوارع يوم الأحد من كل أسبوع في فرقة موسيقية، يتلقون المساعدات من الذين يعطفون عليهم، ويهزهم مظهرهم، وهو مظهر الذليل صاحب الحاجة، بينما كانت هناك ظاهرة أخرى في مواجهتها، وهي ظاهرة استقدام اليهود من شرق أوروبا، أو ظاهرة التيسير عليهم في الحياة الألمانية، بإيجاد عمل لهم في المحلات التجارية، والبنوك، وحياة المسرح والسينما، والصحافة، والحياة العلمية في الجامعات الألمانية على كثرتها واختلاف أنواعها"،[٢] هذا النص وغيره كثير في سيرة الكاتب، يعد لونا من السرد يتميز بالوقوف مع الظواهر التي مر بها في حياته، فتفاعلت نفسه معها بالنقد أو الرفض، وهي على الوجه الآخر تبين للقارئ نمط أسلوب الكاتب في التفكير، حيث يقف مع الظاهرة، ويقيمها ويبدي رأيه فيها ولو ضمنا..

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٣٨.

[٢] المرجع السابق، صـ٤٢.

في هامبورج:

بعد عام من وصول الكاتب إلى ألمانيا ينتقل من "برلين" إلى "هامبورج"؛ للالتحاق بالجامعة لدراسة الفلسفة وعلم النفس، وفي تسجيل الكاتب لأحداث هذه المرحلة من حياته، يأخذ في سرد أسماء أساتذته، وتصوير قدر عنايتهم به، وأثرهم فيه، وكذلك قدر ما عاناه في بداية دراسته بألمانيا من مشقة، تتمثل في صعوبة فهم المحاضرات، أو المصطلحات الفنية، والتي زالت بالتدرج، وكذلك ما أعده من بحوث قبل الإعداد لرسالة الدكتوراه، كما لايغفل عن سرد بعض مظاهر الحياة العامة والأحداث التي وقعت له وأثرت فيه وقتها، كتسلم هتلر للحكم في ألمانيا في ٣١ يناير ١٩٣٣م، ومعاداته لليهود التي طرد بسببها الكثير من الأساتذة اليهود من الجامعة، وقد تأثرت الجامعة بعض الوقت بإخراج عدد كبير من الأساتذة اليهود منها.. ويحصل الكاتب على الدكتوراه في مايو ١٩٣٦م، بدرجة امتياز في الفلسفة وعلم النفس من الجامعة نفسها، ولا ينسى في هذه المرحلة أن يثني على الشيخ "محمد مصطفى المراغي" شيخ الأزهر، إذ لم يدخر وسعا في تيسير متطلبات استمرار البعثة ونقل حسابها من مجلس مديرية البحيرة إلى إدارة الأزهر، كما عُني بأمر البعثة وسمح له بالتقدم للحصول إلى درجة الأستاذية بعد الدكتوراه، ليعود مرة أخرى إلى ألمانيا، حتى ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية، فيعود ليباشر التدريس في كلية أصول الدين.

ولعل أبرز ما في هذه المرحلة من حياة الكاتب؛ تعمد تصوير قدر المشقة التي عاناها في طلب العلم، الذي بدأ طريقه منذ أن حفظ القرآن الكريم في كُتَّاب القرية، وصولا إلى الأزهر بالقاهرة ليحصل منه على العالمية في تخصص" البلاغة والأدب"، ثم يبدأ رحلته خارج مصر وصولا إلى ألمانيا، ومجيئه منها حاصلا على أعلى الشهادات العلمية من أبرز الجامعات العالمية في هامبورج، كما صور للقارئ جديته في طلب العلم، ومشقة ذلك، وصرامته وقدرته على التغلب على المشاكل، ويعد هذا كله حديث ذات، وتصوير نفس في المقام الأول والأخير، يهدف الكاتب من وراء ذلك كله إلي رسم خصائصه الذاتية التي نسجت منها شخصيته.

في الوظيفة بالأزهر.. في التدريس:

يشرع الكاتب في تسجيل مرحلة أخرى مهمة من حياته، بعد الحصول على الدكتوراه والعودة إلى مصر، ألا وهي مرحلة تقلد الوظائف الحكومية، وهذه المرحلة خصوصا –والتي أخذت النصيب الأكبر من سيرته– مرحلة حافلة بالأحداث والمواقف، كما أن الكاتب تميز فيها برسم شخصيته، وتصوير طباعها ومبادئها التي أخذها على نفسه، والتي كانت سببا في احتدام الصراع بينه وبين آخرين، من أصحاب المنافع الشخصية، وأهل الأهواء، وأصحاب النفوس الضعيفة.

فعندما تسلم وظيفته "مدرسا للفلسفة" بكلية أصول الدين، وانتدب في الوقت نفسه بمكافأة إضافية "مدرسا لعلم النفس" بقسم تخصص التدريس الذي يتبع في الإدارة كلية اللغة العربية، وقدرت له الدرجة الخامسة في أول التعيين بناء على رأي وزارة المالية، بينما كان الكادر الخاص بالعلماء لا يتجاوز الدرجة السادسة؛ يذكر أن ذلك كان سببا في " تحامل كثيرين من الشيوخ الكبار في الكلية عليَّ ، ونشر إشاعات لا أساس لها من الصحة ضد علاقتي بالطلاب فيها، أو ضد الرأي السليم الذي أتبناه في شأن العلاقة بين الفلسفة الإغريقية من جانب والإسلام من جانب آخر".(١)

وهكذا تحفل هذه المرحلة بكثير من الأحداث، وسرد للكثير من الأسماء، سواء من عمداء الكليات، أو أسماء الزملاء الذين أحبوه ودافعوا عنه ووقفوا بجانبه، أو من المشايخ المتحاملين عليه، ليس لشيء موضوعي سوى الهوى وحظ النفس..

ومن الأمور المهمة التي ينبغي ذكرها لارتباطها بفنية كتابة السيرة الذاتية؛ تحليل الكاتب لمنهجه الذي رسمه لنفسه في التدريس منذ بداية عمله، وتعمده ذكر ذلك في سيرته، يقول: " وسرت في تدريسي على أساس أني لا أحضر للمحاضرة إلا إذا كنت متقنا تماما للموضوع، فإذا صادف ولم أستوعب الموضوع كله أجلت الحضور لوقت آخر، في اليوم التالي مثلا، وبهذا الأسلوب عشت بين الطلاب مقدرًا تمام التقدير.. كما سرت في أسلوب الامتحان آخر العام على أن من هو دون المتوسط من الطلاب في الامتحان، يعطى فرصة أخرى للمراجعة مدة أشهر الصيف، على أن يعيد الامتحان في الدور الثاني. وبأسلوبي في التدريس عرفت بين الطلاب بالأهلية والصلاحية للمعرفة. وبأسلوبي في الامتحان عرفت بالشدة عندهم. والواقع لم تكن شدة مني. وإنما كانت مصلحة الطلاب أنفسهم. فلم أرد أن أخدعهم حتى إذا دخلوا تجربة الحياة عجزوا عن الوفاء بما استؤمنوا عليه، وما استؤمنوا عليه عزيز على المؤمنين جميعا، وهو كتاب الله وحديث رسول الله (ﷺ) فهما.. وتطبيقا".(٢)

هذا هو أسلوب الدكتور محمد البهي حينما كتب سيرته، كاتب خبير بطباع النفس، لايعنيه مجرد سرد الحدث أو الخبر، قدر ما يعنى ببيان أثره وتوضيح مدلوله، فهو يسرد فترة عمله أو تدريسه بكليتي أصول الدين، واللغة العربية، ثم يأخذ في تصوير طباع نفسه، وخصائصه الذاتية، ليطلع القارئ على خبايا ذاته، من خلال ذكر بعض مبادئه، أو ما يؤمن به من قيم، وتعليل لتصرفاته.

<u>وفاة والده</u> : يتحدث الكاتب في هذه المرحلة، عن حادث وفاة والده، تحديدًا في ديسمبر سنة ١٩٤٢م، ويصور أثره الكبير على نفسه، والذي يظهر في قوله:".. وحزنت عليه حزنا عميقا، لأني كنت أحبه وأقدره".(٣)

---

(١) حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٤٥.

(٢) المرجع السابق ، صـ٤٧.

(٣) المرجع السابق ، صـ٤٩.

زواجه :

ثم يسجل الكاتب للقارئ مناسبة زواجه في عام ١٩٤٣م، ويظهر اعتزازه بهذا النسب؛ لكونه صاهر أحد رموز الوطنية في مصر، يقول: ".. تزوجت بكريمة المرحوم "علي الغاياتي" صاحب كتاب: "وطنيتي"، وصاحب جريدة "منبر الشرق" أيضا".(١)

وعلى عادة كاتبنا حينما يقف مع الأحداث بالشرح والتحليل؛ وتصوير صفات الشخصية المذكورة، لا يبرح الكاتب أن يوظف هذه المهارة، وهو يتعرض لتسجيل هذا الحدث من مراحل حياته، فيأخذ في وصف ما كانت تنطوي عليه نفسُ صِهْرِه من أخلاق ومبادئ، وأثر ذلك عليه من خلال واقع مرير لا يستشعره إلا أصحاب الكفاح من أهل الرأي، وأصحاب الفكر والكلمة، يقول: وكان "صاحب مبدأ، يصدر فيه عن إيمان عميق بالإسلام، وبحب كبير لمصر، ولذا لاقى كثيرًا من العنت والمشقة في حياته. إذ كل من يريد أن يقف بجانب الإيمان بالله، لابد أن يوطد نفسه على تقبل الحرمان، والنصيب الأدنى في متع الحياة، ومن يؤثر الإيمان بالله على الحياة الدنيا قليل في كل مكان، وسيخيب أمله وتمتهن كرامته لو تطلع إلى الدنيا بعد فترة من وقوفه بجانب الإيمان، والوقوف بجانب الإيمان، أو بجانب الدنيا شأن لا إرادة للإنسان فيه، وإنما الإنسان مقدور بخصائصه المميزة لفرديته أو لذاته، وموجه من استعداداته نحو: أن يكون للدنيا، أو للإيمان بالله، والذي يجمع بين مظهر الإيمان، ومتع الدنيا، هو المنافق وحده".(٢)

ابنته " نادية " :

يسجل الكاتب تاريخ إنجاب ابنته الأولى، ويبين أثر ذلك الحدث على نفسه، من خلال ربط توقيت ولادتها بما كانت تمر به البلاد من ظروف، وأحداث تدعو إلى التقشف، لما كان يعانيه الشعب في تلك المرحلة من شظف العيش، وبالتالي فهو يسجل مرحلة قاسية من مراحل حياته التي مر بها، ربما احتاج فيها إلى من يعينه على القيام بحوائج بيته الأساسية، فلم يجد من يحس به، أو يأسى لحاله على عادة أهل العلم في العصور المختلفة، يقول:" وفي سنة ١٩٤٤م، جاءت ابنتي " نادية" إلى الدنيا، وكان القصور في الغذاء والكساء ظاهرة سائدة في الحياة المصرية إذ ذاك، فجنود الخلفاء بلغت عشرات الآلاف بمصر، وكان على مصر أن تمد هؤلاء الجنود بكل ما يحتاجونه..".(٣)

---

(١) حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٤٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق ، صـ٥٠.

وبعد ذلك يأخذ الكاتب في سرد الكثير من الأحداث، وتسجيل المواقف والتعليق على بعضها، وإبداء الرأي حتى يصل بالقارئ إلى محطة أخرى في محطات حياته، ألا وهي تعيينه مديرًا لجامعة الأزهر – رئيس الجامعة حاليا – وما قام به من جهد لأجل تطوير الجامعة والارتقاء بها، وما لاقاه في سبيل ذلك.

قانون تطوير الأزهر:

يقصد به القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، يحدثنا الكاتب في هذه المرحلة عن قرار تعيينه مديرًا لجامعة الأزهر دون علم مسبق منه، وإنما عرف الخبر من السيد "كمال رفعت"، – الذي كان يشرف على دار أخبار اليوم بعد تأميمها– أنها رغبة السيد رئيس الجمهورية، وأبرز ما يلفت النظر في هذه المرحلة تسجيل الكاتب لما قام به من مهام تمثلت في تنظيم كليات الجامعة، وإنشاء كليات جديدة، وتأليف اللجان لوضع المناهج لكل كلية، وما قدمه للطلاب الأزهريين من خدمات كي يقبل الطالب على الدراسة الأزهرية في رغبة واطمئنان، كتحويل ريع بعض الأوقاف الخيرية إلى صندوق الرعاية الاجتماعية لطلاب الجامعة، كي يقدم لهم خدمات منها: تقديم وجبات غذائية ساخنة لطلاب الجامعة كل يوم؛ والذي كان من أثره أن طلاب الكليات الثلاث التقليدية في ذلك الوقت واظبوا على الحضور، وطالت إقامتهم بالقاهرة عما اعتادوا عليه من قبل.. كما وضع ميزانية الجامعة لسنة ١٩٦٢م وتضمنت الكليات كلها الوظائف الجديدة أسوة بكادر الجامعات الأخرى الموجودة بالجمهورية.. والحقيقة أن هذه المرحلة خصيصا من مراحل حياة المؤلف، تعد سجلا تاريخيا، وشهادة صدق لمرحلة انتقالية لجامعة الأزهر، من أخطر مراحلها، انتقلت فيها من طور إلى طور، سجل الكاتب فيها الكثير من الأحداث التي تخص تطوير الجامعة، وإنشاء الكليات العلمية، وأسماء من المؤيدين والمعارضين، ومن تعاون معه وآمن بفكرته في النهوض بالجامعة، وزمان ومكان وضع حجر الأساس للمقر الجديد للجامعة بمدينة نصر، وتحامل البعض عليه، ووصفه لبعض التكلات الإقليمية أو الحزبية في الأزهر –على حد تعبيره– ولكن إيمانه الشديد برسالة الأزهر، وما ينبغي أن يكون عليه الخريج الأزهري، واستشعاره المسؤولية، كان دائما دافعا له، ويستمر في سرد أحداث هذه المرحلة حتى تم اختياره وزيرًا للأوقاف.

إلى الوزارة :

بعد مدة قصيرة على مباشرة الدكتور البَهِيّ لإدارة جامعة الأزهر، يعين وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر، في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢م، ويبدأ الكاتب حديثه بذكر عدم رغبته في تولي الوزارة؛ لأنه كان يرى ضرورة تواجده في إدارة الجامعة فترة لإتمام ما بدأه، لولا الضغط عليه لرغبة السيد رئيس الجمهورية في ذلك، وأخذ وعدا بأن يشرف عليها من خلال

مسؤليته بالوزارة، ولكن الكاتب يثير نقطة مهمة في ذكر أحداث هذه المرحلة، مفادها ما علمه فيما بعد من تعمد نقله للحيلولة بينه وبين النشاط الظاهر الذي قام به في وظيفة مدير الجامعة.. وهنا يتطلع الكاتب لرحلة أخرى من الكفاح تتمثل في مسؤوليات جسام بالأوقاف، تمثل أصعبها في قضية صدور قانون الاستيلاء على الأوقاف الخيرية الإسلامية من جانب الدولة.. ونظرًا لما كان يحدث من حوادث مفجعة عند تسليم عقارات الأوقاف من أمور تدل على الانتهازية، واستباحة أموال المسلمين، يذكر الكاتب أنه انبري للتصدى لذلك من خلال العمل الجاد على تسجيل حجج الأوقاف، وتصويرها وتلخيص مضمونها حتى لا تضيع، يقول: "وعَيَّنْتُ أربعين من متخرجي كلية الشريعة بالأزهر للمساعدة في إنجاز هذه الرسالة.."،[١] ثم يأخذ الكاتب في سرد حقائق وأمور تدل على صدق طويته، ونقاء سريرته، وإخلاصه لرسالته، إلى أن يقول:" وكانت أمامي في وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، بعد أن استبعدت منها "أملاك الخير" عدة رسالات: رسالة الدعوة في المساجد، ورسالة الأزهر في المعاهد، ورسالة الجامعة، ورسالة الدعوة في الخارج...".[٢] ويسجل الكاتب للقارئ ما لاقاه في سبيل تحقيق هذه الأمور، وما تحمله من وقائع ودسائس لينصرف عن تحقيق أهدافه، ولكن المهم والغريب في هذه المرحلة ما يأخذ الكاتب في سرده من وقائع الخلاف الذي وقع بينه وبين شيخ الأزهر في هذا الوقت الشيخ محمود شلتوت –رحمه الله– بناء على وقيعة من مرضى النفوس، يذكرها الكاتب، كما يذكر أنه حاول تهدئة الإمام الأكبر، وترضيته بزيارته في بيته وتقبيل يديه، إلا أنه لم يفلح، ووصل الأمر إلى أن فضيلة الإمام وقف ضد بعض قراراته بوصفه وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر، موقفا مؤلما حيث قام بكتابة مذكرة رفعها لمجلس الدولة، ويرفق الكاتب صور هذه الخطابات والرد عليها، ويأخذ الكاتب في تسجيل هذه الأحداث وبيان أثرها المؤلم على نفسه يقول:" وكما وجد في مجال المعاهد الأزهرية من يدفع الأستاذ الأكبر وهو مريض من أصهاره وتلامذته، إلى سوء الظن بي.. وجد كذلك في مجال الجامعة من يدفع وكيلها إلى سوء الظن بي..". [٣]

كانت فترة تولي الكاتب للوزارة فترة حرجة، صور فيها التكتلات من جهات كثيرة ضد الإسلام المتمثل في المؤسسة الأزهرية والأوقاف، كما ذكر قدر الفساد الذي واجهه ووقف ضده في هذه المؤسسة، وذكر بعض أسماء من عبثوا بأموال المسلمين، واستغلوا وظائفهم بالوزارة للإنفاق على نزواتهم وأهوائهم، ويرى الكاتب أن هذه المواجهات، وتصديه لمثل هذه التصرفات؛ كان السبب الرئيس وراء خروجه من الوزارة، فمع أول تعديل وزاري، في مارس ١٩٦٤م كان كاتبنا من بين الذين أخرجوا منها، ليعود إلى وظيفته مديرا لجامعة الأزهر مرة أخرى.

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٨٢.
[٢] المرجع السابق ، صـ٨٤.
[٣] المرجع السابق، صـ١١٢.

ما بعد الوزارة :

بدأ الكاتب تسجيل هذه المرحلة من سيرته بقوله: قدمت استقالتي من وظيفة مدير الجامعة، معللا لذلك بأنه عَلِمَ أن المهندس " أحمد عبده الشرباصي" هو من تولى وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، في التعديل الوزاري الجديد، وقد كان مختلفا معه في الرؤية الإصلاحية التي تبناها، ثم يسرد بعض الوقائع ولعل أبرزها طلب السيد رئيس الجمهورية منه أن يظل يشغل وظيفة مدير الجامعة، وألا يخبر أحدا بأمر الاستقالة، وأن يظل شاغلا للوظيفة حتى تتصل به الرياسة، ويذيل ذلك بتصوير ما كانت عليه نفسه من قلق وحيرة وحرج، فيقول: ".. وكنت لا أستطيع أن أفعل شيئا إلا في حدود ما طلب مني: أن أتخذه موقفا، ولذا كانت هناك إحراجات كثيرة لا أستطيع الخلاص منها في يسر"،[١] ويأخذ في سرد تحامل بعض الأشخاص عليه كالدكتور "محمد سليمان"، وكيل الجامعة، الذي كان يظن أنه لم يعينه مديرا للجامعة في فترة توليه الوزارة وشئون الأزهر؛ ليحتفظ بالوظيفة لنفسه بعد أن يخرج منها، والآن تأكد له هذا الظن بعد عودته إليها –على غير رغبته – بناء على تكليف الدولة له، وفي الوقت نفسه ما تعرض له من حملات وإشاعات تولى كبرها بعض الأساتذة، وعلى الجانب الآخر يذكر ما عرض عليه من وظائف أخرى، كمدير جامعة الإسكندرية، والتي رفضها قطعا احتراما للأساتذة العاملين بها، وسفيرا للجمهورية في كندا، فاعتذر عن ذلك كله.. إلى أن ترك رئاسة الجامعة، وعاد للتدريس أستاذا كما كان.

الجامعة مرة ثانية:

بعد أن ترك الدكتور البَهِيّ رئاسة الجامعة مستقيلا منها، صدر قرار جمهوري بتعيينه أستاذا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وفي هذه المرحلة من حياة الكاتب يصور للقارئ قدر الاضطهاد الذي تعرض له من الشيوعيين والماركسيين، الذين انتشروا وسادوا في مصر وقتها، وإن لم يأبه بذلك يوما، يقول: " وفي ترددي على قاعة المحاضرات أحسست بنفر من المخابرات، وببعض الطلاب الشيوعيين، ولكن بالرغم من ذلك كنت صريحا في تناولي، وفي تعبيري عن رأي الإسلام في النظامين: الرأسمالي، والاشتراكي الماركسي"،[٢] كما أخذ الكاتب في سرد وقائع ومواقف مخزية، صَوَّرَ للقارئ من خلالها عدم التقدير له في هذه المرحلة، التي كان ينبغي أن يكرم فيها؛ على جهوده بعد مسيرة حافلة بالعطاء، ومن ذلك قوله: " وفي السنة الدراسية التالية دعاني عميد الكلية –وكان أستاذا مهذبا– وسلمني ما أهداه إليّ رئيس جمهورية النيجر من أوسمة ونياشين، بمناسبة زيارته للقاهرة في عام مضى، ومساعدتي في توفير المدرسين للغة العربية

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٢٢.

[٢] المرجع السابق ، صـ١٢٦.

والإسلام في مدارس بلاده، وبدت على العميد أمارة الأسف وهو يقدم إلى الهدية؛ لأنه كان يعتقد أن المروءة كانت تفرض على الجامعة أن تقدم هذه الأوسمة في احتفال ولو محدودا لأعضاء هيئة التدريس فيها.."، [١] ويبدو أن هذه الواقعة كان لها أثر كبير في نفسه، فأخذ يستطرد شيئا ما في سرد وقائع هذه القصة، وتحليل وقعها عليه، وتعامله معها يقول: ".. وعلمت أن رياسة الجمهورية أرسلت هدية النيجر إلى الأمين العام للجامعة، وهذا بدوره أرسلها إلى العميد، وبمقتضى الأسلوب اللاإنساني، كان للعميد أن يرسلها مع الساعي في الكلية، وباستنكاري في نفسي لهذا الأسلوب، واشمئزازي منه لم أفحص هذه الهدية ولم أتعرف على قطعها، بل تركتها مغلقة كما جاءت، ووضعتها في المنزل إلى أن سرقت مع ما سرق من متاع ومال في سبتمبر سنة ١٩٧٧م أثناء قضاء إجازة صيفية، ولم يرد شيء مما سرق".[٢]

وفي شهر أغسطس ١٩٦٥م يبلغ الكاتب سن المعاش بوصوله الستين من عمره، ويأخذ قرارا بالاعتكاف في منزله، وقد صدر له قرار من وزير الدولة وقتها السيد "شعراوي جمعة" بإضافة خمس سنوات أخرى في عمر الوظيفة، على أن تجدد كل عام بقرار جمهوري، ولكنه خُيِّر في مجالات العمل التي يفضلها عدا الجامعة، ومنها أن يعين عضوا متفرغا في مجمع البحوث الإسلامية، لكنه اعتذر، ورفض قبول أية وظيفة، ورضى بما هو دون ذلك، يقول: "وسوي معاشي في الجامعة، وانخفض دخلي بهذه التسوية إلى النصف تماما".[٣]

<u>تداعيات الأسى:</u>

تتداعى الهموم على الكاتب المفكر في هذه المرحلة، نتيجة لتعرضه للكثير من الأحداث القاسية على نفسه، وأبرزها حادثتان: الأولى: تتلخص في أنه كان متعاقدا مع "الدار القومية"، على إعادة طبع كتاب: "الفكر الإسلامي الحديث.. وصلته بالاستعمار الغربي"، الذي كشف فيه عن سيئات الاستعمار، وتخفيه وراء العلم، والمنهج العلمي لمحاربة الإسلام، والكتاب خلاصة تجربته التي عاشها في "كندا" في مدينة "مونتريا ل"، وكان يقوم وقتها بتدريس الحركات الإسلامية المعاصرة في معهد الدراسات الإسلامية الملحق بكلية اللاهوت هناك بجامعة "ماكجيل" في السنة الدراسية ١٩٥٥/١٩٥٦م، وتُمارس على الكاتب ضغوط شتى من جهات مختلفة؛ ليحذف من الكتاب الفصول الخاصة بالشيوعية، وما جاء خاصا فيه بالمستشرقين والمبشرين.. ويرفض الكاتب ليبقى الكتاب تحت الرقابة وعدم الطبع، إلى أن يطبع في بيروت عام ١٩٦٩م.

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٢٦.

[٢] المرجع السابق ، صـ١٢٧.

[٣] السابق نفسه.

أما الحادثة الثانية: فهي محاولة طرده من سكنه " الفيلا " التي كان يسكنها بمصر الجديدة، بعد أن استأجرها من صاحبها للإقامة فيها في أول يناير ١٩٦٣م، لكونها أعجبت إحدى السيدات – من الممثلات – التي كانت على علاقة خاصة بأحد أصحاب النفوذ في الدولة وقتها، الذي اتبع بدوره مع الدكتور البهي أساليب غير أخلاقية، ما بين المساومة تارة، والتهديد لإخراجه من " الفيلا " تارة أخرى؛ لمجرد أنها أعجبت تلك السيدة لموقعها الهادئ والمميز، وهنا يسجل الكاتب أحداثا مأساوية، تتمثل في استغلال أصحاب النفوذ سلطتهم، وتسخيرها لأهوائهم وأغراضهم الشخصية، كما يأخذ في سرد مأساة الأتقياء الأتقياء الذين يتحرون الحلال، فبعد أن تنتهي فترة خدمتهم بالحكومة، يجدون أنفسهم يصطدمون بواقع مادي أليم، لدرجة تصل بهم أنهم لا يجدون سكنا يأويهم وذويهم من أفراد عائلتهم، فمن سطور المأساة قوله: " وعلى كل حال هو قدري، أصل في الوظائف إلى درجة وزير ولا أملك مأوى...". (١)

وفي ثنايا تسجيل الكاتب لهذه المأساة يسرد بعض الوقائع من تداعيات الذاكرة، أرى أن لها دورًا كبيرًا في فهم طبيعة الكاتب الخاصة، وتصوير مبادئه التي تبناها منذ الصغر، ولازمته حتى الكبر، فما استطاعت الدنيا بضغوطها، ولا الأيام بأحداثها أن تلين منه قناة، يقول: ".. وكنت في حل من مشكلة هذه الفيلا لو أني امتلكت الفيلا التي عرضتها علىَّ شركة مصر الجديدة بشارع رمسيس، بعد التوقيع على عقد إيجارها، فقد استأجرت فعلا في أول عهدي بالوزارة، فيلا تملكها شركة مصر الجديدة مكونة من ثلاثة أدوار بإيجار قدره أربعة عشر جنيها في الشهر، ومساحتها تصل إلى ألفي متر مربعا.. ورغم أنه قيل لي : إنها فرصة نادرة، ولكن حرجي مما يقال عن استغلال الوظيفة.. جعلني ألبي رغبة السيد "سامي شرف" في التنازل له عنها ليسكنها، وقد انتهز عدد من الوزراء معي في الوزارة فرصة تقلدهم لوزارتهم في السكنى بعمارات التأمين أو التي هي تحت الحراسة، أو بأملاك شركة مصر الجديدة، ولكنه المبدأ الذي أخذت نفسي به، وهو الابتعاد عن الشبهات، ولو أدى إلى المواجهة السمجة، كما هو الحال بسكني الآن".(٢)

فترة العزلة:

هكذا عَنْوَن الكاتب فصله أو مقالته –إن صح التعبير– في هذه المرحلة الأخيرة من حياته، ونجد فيها معاني الإيمان تتجلى في كلمات الكاتب، وتنسال من قلمه عبرات تنضح بالصدق واليقين، فمع كل ما مر به من أحداث، إذ به يفكر في النعم التي رزقه الله إياها، فوجدها –على حد تعبيره– تتركز في الصحة، والقدرة على الفكر والكتابة، والاطمئنان في الحياة الزوجية والأسرية،

(١) حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٣٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

وطالب نفسه أن يمارس الفكر والكتابة، وبالفعل كتب كتبًا ورسائل ما كان يستطيع كتابتها من قبل لضيق وقته، ثم يأخذ في سرد أسماء هذه الكتب والتعريف بمضمونها، وبيان قيمتها من خلال تجلية ما ساهمت فيه من عرض الإسلام في مواجهة التحديات الأيديولوجية الماركسية.. وتفسير سور من الوحي المكي.

على مسرح الأحداث:

ختم الكاتب سيرته بهذا العنوان، وفيه يظهر الجانب التأملي الفلسفي، ونظرة الكاتب للحياة، التي تتمثل في التأمل في حقيقة هذه الحياة، والتأمل في مصائر الأشياء، والنظر إلى الدنيا بعين الازدراء من رجل خَبَرَ الحياة، وتقلب في وظائفها، وتقلد أعلى مناصبها، لكنه زهدها وتركها قبل أن تتركه، مختارا ما عند الله من نعيم على كل متاع زائل، يقول: " ولم تساعدني حياة العزلة على الكتابة والتأليف فقط ، بل أعانتني كثيرًا على أن أرى الأحداث في مصر، وفي الأمة العربية، وفي العالم الإسلامي، وتطورها... رأيت الأزهر، وما يصيبه من ضعف بعد ضعف: في شيوخه، وفي تصورهم لرسالته، وفي حرصهم على وظائفه.. ورأيت السياسة والسياسيين في ميدان الحكم، ينافق بعضهم بعضا، ويجرح بعضهم بعضا، بضاعتهم كلام وأحاديث لهو.. ورأيت أصحاب المهن الحرة لا يعرفون الله في رسالتهم، يغويهم الشيطان فيستغلون الضعفاء، في غير رحمة ولا شفقة، ورأيت الخدمات العامة: كيف تؤدى، فلم تعد أمانات يُسْأَلُ عنها الضمير، ولا الإنسان أمام الله.. ورأيت الشباب كيف فسدت تربيته، وانطلق في حركته الفوضوية واللاأخلاقية.. ورأيت كيف تلهث عامة الناس من أجل لقمة العيش، ومن أجل حد أدنى من الكساء ليستر به عورته، ملك عليها السعي من أجل البقاء كل النوافذ، فلم تَعُد ترى نافذة الدين، والأخلاق... إني أحمد الله: أني أنظر بعين مجردة عن الرغبة في المشاركة في زفة الحياة إلى ما يحدث، ويصير، ويتطور، إني زاهد الآن فعلا في الحياة، وتجربتي من الحياة أن الباقي فعلا للإنسان على مدى العمر الطويل، هو إيمانه بالله، ووقوفه عنده، والزهد في متع هذه الدنيا، وعدم انتظاره لمتعة من متعها. بل على العكس: ترقبه أحداثا يتغلب عليها الصبر وحده".[١]

بهذا اللون من السرد التصويري، والوصفي، والتأملي في الوقت نفسه، يسجل الكاتب السطور الأخيرة من سيرته، والتي أظهرت للقارئ صورة ذاته، وصوت نفسه، وما انطوت عليه نفسه من معتقد صحيح، وتمسك بمبادئ مثلت عمره كله، وإن تجلت نصا في هذه المرحلة الختامية، والكاتب في هذه السطور قد بلغ العام السادس والسبعين من عمره، فقد سلم الكتاب للمطبعة – كما ذكر الناشر – في بداية العام الذي توفي فيه، وكان قد بلغ العام السابع والسبعين،

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٤٥.

ومات بعدها بشهور، ومن ثَمَّ فالكتاب وثيقة صدق وميثاق حق لذات استطاعت أن تصور ما اختارته لنفسها من بداية العمر، وما ربطت به حياتها؛ إنه الأزهر المعمور، ومن ثم جاء ختام كلماته نغما شجيا، ونعتا واقعيا، وإيقاعا حزينا، وحسرة نفس لما يرى عليه الأزهر وشيوخه وقتها، لأن حياتَه حياتُه، ورسالته رسالته، ارتبطت به نفسه وروحه منذ النشأة، فما كان لها أن تفارق الحياة إلا من خلاله ومن أجله، أو على الأقل على عتبات الحديث عنه في فضاء الإبداع الأدبي من خلال سرده قَصًّا وحكيا..

ومهما يكن من أمر فإن جمالية المضمون السردي للسيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ، تكمن في تحري الكاتب الصدق الواقعي والوجداني، واتصافه به في سرد وقائع وأحداث مراحل حياته مهما كانت، حتى لو دفعه ذلك لذكر عيوب بعض الشخصيات، وإن اتسم بالتزام الأدب عند ذكر مخالفيه، فلم يقع في سب أو غيره، وهو ما يضفي على سيرته قيمة أدبية ونقدية، تكمن في كونه نقل التجربة بإيجابياتها وسلبياتها، وبهذا تصبح ذات فائدة ، تنفع القارئ، بل والأجيال.

وكذلك تميزها بسرد مراحل حياته المختلفة، والمتعددة الجوانب داخل مصر وخارجها، في تسلسل وتدرج محكم، وتصوير دقيق لنمو شخصيته وتطورها عبر كل ذلك، وبالتالي فهي كتابة فنية اتسمت بسرد المراحل، وتصوير الشخصية عبر هذه المراحل، واتسامها بوحدة البناء والإحساس بالتطور الزمني، بما تضمنته من صراع ومعاناة تمثلت في بعض مراحل حياته.

الفصل الثاني: ملامح السرد الفنية للسيرة الذاتية في كتاب "حياتي في رحاب الأزهر.. " :

من الأمور الفنية المهمة التي ينبغي أن أشير إليها قبل التعرض لتحليل بعض الملامح الفنية للسرد في السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ، أن السيرة الذاتية بوصفها فنا أدبيا تتميز باشتمالها أو استمدادها للكثير من العناصر الفنية المتواجدة في عدة فنون نثرية أخرى؛ كالسرد في الرواية بآلياته المتعددة، من الأحداث، والأشخاص، والبيئة بمكونيها الزمان والمكان، وربما استمدت الحوار أيضا من المسرحية في نقل السارد لبعض المواقف التي وقعت له مع بعض الشخصيات، وصياغة هذا كله في لغة أدبية، وأسلوب واضح معبر عن أحداث حياته بشخوصها وزمانها وأماكنها، لينقل للقارئ –من خلال ذلك كله– تجربته أو فكرته المتغياة من تسجيل أحداث سيرته، وفي السطور التالية محاولة لمقاربات نقدية، أعرض من خلالها أبرز ملامح السرد التي وظفها الدكتور محمد البَهِيّ في سيرته الذاتية:

أولا: جمالية العنوان:

يمثل العنوان أولى العتبات النصية التي تقابل المتلقي عند محاولة تعرفه على العمل الأدبي، ولهذا يعده النقاد "علامة تضطلع بدور الدليل، دليل القارئ إلى النص سواء على المحتوى الإشاري، أو التأويلي"،[١] كما تكمن أهميته في كونه يتخطى دور تعريف القارئ على المنجز الفني، إلى كونه أداة فاعلة في يد الناقد للتعامل مع النص، فهو بمثابة " مصطلح إجرائي ناجح في مقاربة النص الأدبي، ومفتاح أساسي يتسلح به المحلل للولوج إلى أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها"،[٢] وبهذا صار اختيار" هذا العنوان أو ذاك له دلالته فكرًا، وفنًا، وموضوعًا".[٣]

وعنوانُ السيرة الذاتية التي بين أيدينا "حياتي في رحاب الأزهر، طالب.. وأستاذ.. ووزير"، بصورته التي اختارها الكاتب عنوانٌ مميزٌ متفردٌ له دلالته الخاصة التي تحتاج إلى مزيد تأمل، لأن الكاتب اختاره بدقة ليمثل كلُ جزء منه، بل كل مفردة من مفرداته دلالة زمنية ونفسية أو فكرية، وبهذا يؤدى مكتملا وظيفة جمالية تعريفية، أو إغرائية تشويقية، أو نفسية إيحائية إلخ.. فكلمة "حياتي" المكونة من لفظة "حياة"، و "الياء" ضمير المتكلم، الذي يمثل ضمير الذات وصوت النفس؛ تبرز تلك الخاصية التي تفرد بها هذا العنوان، فكأن الكاتب يسبق القارئ للإجابة على أسئلته قبل أن يسأل، فيعلن أن ما سيكتبه جزء من دفين نفسه، ومكنون ذاته، قائلا هذه حياتي كما

---

(١) في نظرية العنوان ، خالد حسين حسين، ط دار التكوين (د – ط)، ٢٠٠٧م، صـ ٦٥ .

(٢) سيمياء العنوان بسام قطوس، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ٢٠٠١م، صـ ٤٩.

(٣) ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي)، د/ محمود عبد الوهاب، ط دار الشؤون الثقافية بغداد، ط الأولى (د،ت)، صـ ٣.

عشتها، نَعَم حياتي العامة كما رآها الناس، وحياتي الخاصة بما أفنيت فيها من عمري وبذلت من نفسي، ولكنها لم تكن كأيَّة حياة، لم تكن حياة عامة لاهية، أو حياة مبعثرة أشتاتا، أومفككة أجزاء، عشت بعض مراحلها في عالم، والبعض الآخر في عالم آخر، وإنما هي حياة مترابطة ممتدة متصلة ببعضها، أجزاؤها متسلسلة مرتبة، مذ كنت طالبا، إلى أن أصبحت أستاذا، وصرت مديرا لأعرق الجامعات، فوزيرا لإحدى الوزارات... هذه المراحل كلها يضمها إطار واحد، وسياق محفوف بأسوار الثقافة والعلم، ويحوطها سياج المبادئ والقيم التي تلاقت واجتمعت في رحاب مقدسة، وأَيّ رحاب إنها ساح الأزهر المعمور، حيث الأروقة والأعمدة التي تشهد لدارسيها ومدرسيها، هذه الحياة التي ساقته الأقدار ليكون أحد رجالها، فَهَنِئ بها، وتفيأ ظلالها الوارفة حتى صارت لُحمة في أعضائه، ونبضة في دمائه، ودقة في أنفاسه، ودفقة في عروقه، ونبرة في كلماته وكتاباته، إنها الحياة في رحاب الأزهر، ويالها من حياة، ارتشف من معينها العذب أَجَلَّ ما يُرتشف، وقطف من ثمارها الغضة أجمل ما يقتطف، وجنى من ثمارها الناضرة أطيب وأشهى ما يجتنى.

لقد أراد كاتبنا –من خلال العنوان الذي اختاره بعناية– أن يلفت نظر القارئ من أول وهلة، أو أن يوجز له في أقصر جملة؛ مسيرة عمر ممتد بالسعي والعمل والكفاح، وبهذا فقد أدى العنوان عدة وظائف مختلفة، تتكامل ولا تتعارض، فهو عنوان تعريفي، كما أنه فني جمالي بدلالته، نفسي بما حَمَّله من شحنات متعددة موحية تعبر عن مكنون نفسه، تشويقي بما أغرى به القارئ وأثار فضوله، فتلهف لقراءته وتتبع مسيرته، وبالتالي فكل العناوين الفرعية الأخرى التي وضعها الكاتب داخل سيرته انبثقت من هذا العنوان الرئيس ولم تنفصل عنه، وتكمن جمالياتها في كونها جاءت مرتبة كأنها فقرة نثرية قطعت أجزاء، أو قسمها كاتبها إلى عناوين داخلية لسيرته، وأرى أنها أجزاء انفصلت من نفس الكاتب وروحه وأعصابه حين كتبها، ونحاول أن نتامل هذا النسق المنمق، والترتيب المنتظم، في سرده للعناوين الفرعية: (١: من القرية.. إلى دسوق، ٢: ثم.. إلى الإسكندرية، ٣: ثم.. إلى الأزهر بالقاهرة، ٤: ثم.. إلى ألمانيا، ٥: في ألمانيا، ٦: في هامبورج، ٧: في الوظيفة بالأزهر.. في التدريس، ٨: إلى الوزارة، ٩: بعد الوزارة، ١٠: الجامعة مرة ثانية، ١١: فترة العزلة، ١٢: على مسرح الأحداث)، بهذا النسق المرتب المنمق الذي يربطه خيط شعوري ونفسي واحد، وضع الكاتب عناوين سيرته الفرعية أو الداخلية، والتي جاءت متناسبة مع كل كلمة في العنوان الرئيس، مكملة له، مفصلة ومفسرة لأجزائه، تضمها وحدة عضوية وموضوعية، ولو أن القارئ ضمها إلى بعضها لقرأ ملخصا للسيرة الذاتية للكاتب، لأن كل عنوان من هذه العناوين يمثل مرحلة، أو حدثا مهما من أحداث قصته ومسيرته.

إذا فعنوان السيرة عنوان متفرد لم يسبق كاتبنا بعنوان سيرة ذاتية مثله في تركيبه ودلالته، متميز بخصوصية صاحب السيرة ورؤيته لحياته التي لم يرها إلا في هذه المؤسسة العلمية والدعوية، معبر بأجزائه فكل جزء فيه يمثل مرحلة عمرية من حياة الكاتب جاءت محملة بعناصر السرد من أحداث، وأشخاص، وأزمنة وأمكنة. كما أن عنوان السيرة جاء عنوانا تقريريا خبريا، مجردا من الرمزية كما يظهر للقارئ من أول وهلة، وعلى هذا فإن فيه إعلانا صريحا وتوضيحا للقارئ عن مضمون السيرة، وإن كنت أرى أن كلمة "في رحاب الأزهر.." تحمل الكثير من الدلالات والرموز حيث التراث، والعروبة، والإسلام، والعقيدة، والقداسة، وحماية المبادئ والقيم، وحراسة الأخلاق... إلخ ما تحمله من شحنات ورموز دلالية، وقارئ السيرة يفهم هذا جيدا بل ويتذوقه أثناء معايشته رحلة حياة الكاتب، بل وفي مؤلفاته التي كانت –أغلبها– حربا على المادية المجردة، والاشتراكية الماركسية التي سادت في عصره، ومحاضراته التي أظهر فيها تعارض هذا الفكر مع تعاليم الإسلام، والحروب التي خاضها وتحمل تبعاتها بسبب إيمانه الشديد ودفاعه عن دينه، ومن يتأمل حجم المساومات التي تعرض لها الكاتب من أنصار الماركسية، والإغراءات المالية التي عرضت عليه من قبل حماة المستشرقين ليغير فكره أو يحذف بعض ما سطره؛ يفهم جيدًا لماذا جعل الكاتب حياته في رحاب الأزهر دون غيره من الحيوات؟!. إنها حياة واقعية غير متخيلة بأحداثها وأشخاصها وأزمنتها وأماكنها، حياة كل أزهري صادق عرف غايته، وآمن برسالته ووطن نفسه أن يتحمل في سبيل ذلك ما يلاقي في حياته، ما دام قد رضي أن يعيش "صاحب مبدأ، يصدر فيه عن إيمان عميق بالإسلام، وبحب كبير لمصر، ولذا لاقى كثيرًا من العنت والمشقة في حياته".[١]

ثانيا: الأحداث:

تعد السيرة الذاتية بوصفها متنا سرديا أو حكائيا، هي مجموعة الأحداث التي اجتمعت وتنامت حتى كونت سيرة الكاتب الذاتية، فالأحداث أحد أهم " أركان السيرة، ولها تأثيراتها في بقية الأركان الأخرى، ولكل حدث تأثيره في الشخصية التي قامت به، مثلما يؤثر في الشخصيات الأخرى".[٢] فما كتبت السيرة الذاتية إلا لتجلية الأحداث التي جرت للسارد (الراوي)، وارتبطت بها حياته وأثرت فيه، ومن خلال ما تم عرضه من جمالية السرد لمضامين السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ؛ نلحظ أن الكاتب كان حريصا كل الحرص على **سرد الأحداث التي ترسم للقارئ صورة واضحة عن قسمات حياته بأطوارها المختلفة في جميع مراحلها**، منذ بداية تعليمه في القرية، وعبر مراحل تعليمه المختلفة داخل مصر وخارجها، وكذلك تصوير ملامح شخصيته، والشخصيات

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٤٩.

[٢] السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، (م، س)، صـ٩٦.

الأخرى التي تعرض لها إزاء كل حدث، كما تعمد عرض أهم المواقف والأحداث المؤثرة التي تعرض لها في حياته، وكان موضوعيًّا في تقسيمها، وربطها بخط فني واحد تميز بالترابط والتناسق والتسلسل الموضوعي، فلم يلحظ القارئ فيها شيئا من التفكك والتعارض الناتج من تقديم حدث على آخر زمنيا، إلا إن دعت الحاجة فيشير إليه إشارة خاطفة.

كما اشتملت أحداث السيرة للدكتور البَهِي على **عنصر الصراع**، لا سيما فيما وقع بين الكاتب وبين النفعيين من الأشخاص الذين التقى بهم داخل جامعة الأزهر، أو وزارة الأوقاف، من مواقف وأحداث مؤلمة تخللها عنصر الصراع، وهو ما قوَّاها وأعلى قيمتها فنيًّا وشعوريًّا، " فحظ السيرة الذاتية من البقاء، يرجع في الغالب إلى مدى ما تنقله لنا من إحساس كاتبها بالصراع، الذي يثير في نفوسنا ألوانا من المشاعر تحفزنا على مشاركته تجاربه وخبراته، وعلى تعاطفنا مع مواقفه وأفعاله".(١)

ومن أبرز ملامح السرد التي تميز بها الدكتور البَهِيّ في تسجيل أحداث سيرته الذاتية؛ **أنه جمع بين سرد الأحداث بنوعيها الخاصة والعامة، أو بين ما يسمى نقديا بالحدث الشخصي والحدث التاريخي**، والذي كان عنصرًا فاعلا فيها، فاستطاع بمهارة خاصة أن يربط بين الأحداث التي وقعت في حياته وبيان أثرها عليه، أو تأثيرها في توجيه حياته كما أن هذين الحدثين – العام والخاص– كثيرًا ما كانا يلتحمان حتى يظن القارئ أنه يقرأ حدثا واحدًا، فهما يسيران في خطين متوازيين لا ينفصلان من بداية السيرة إلى نهايتها.

ومن ذلك مثلا ما نراه في بداية سيرته وهو يسجل فترة تعليمه في معهد "طنطا"، التي لم يمكث فيها طويلا حتى نقل إلى معهد "الإسكندرية"؛ بسبب بعض الأحداث العامة بمصر وقتها، يقول: " وفي طنطا لم يستقر بنا الأمر طويلا، ولم نكمل سنة واحدة هناك، وصدر قرار بتحويل أبناء " البحيرة" إلى " معهد إسكندرية الديني"، ففي هذه السنة وقعت إضرابات واضطرابات عامة، تعبيرًا عن الرغبة الوطنية القوية بإنهاء الاحتلال البريطاني لمصر والسودان".(٢)

فجمالية سرد الحدث هنا تكمن فيما سجله السارد عن أحداث سيرته في مرحلة معينة، وربط هذا الحدث الخاص بحدث تاريخي عام، ثم يدلل على تأثره به حتى أصبح موجهًا لمجرى حياته.

ومن نماذج ذلك أيضا، ذلك الحدث الذي كان له أثر كبير في توجيه حياته كلها، ويتمثل فيما قررته محافظة البحيرة –وهو أحد أبنائها– في احتفاليتها بذكري المرحوم الشيخ "محمد عبده"، أن تبتعث أحد أبنائها إلى ألمانيا تخليدًا لذكرى الإمام–رحمه الله–، ووافق ذلك أنه كان في السنة

---

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى عبد الدايم، (م، س)، صـ١٥٠.

(٢) حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٧.

الأخيرة في التخصص، ووقع الاختيار عليه لتفوقه، وبالتالي فإن هذا الحدث التاريخي –العام– غير مجرى أحداث حياته –الخاصة– كلها فيما بعد.

ونماذج هذا الجانب من محاولة ربط الأحداث العامة والخاصة ببعضها، في سرد الكاتب لأحداث سيرته وأثرها فيه كثيرة، ولا أكون مبالغًا إن قلت إن سيرة الدكتور محمد البَهِيّ الذاتية مبنية – في أغلبها– على هذا النمط الأسلوبي الجمالي في سردها للأحداث من بدايتها إلى نهايتها.

كما تميزت الأحداث في سيرة الدكتور محمد البَهِيّ **بالتدرج المنطقي**، فقد قسمها إلى محطات زمنية، ارتبط كل حدث منها بمرحلة زمنية معينة، سواء أكانت داخل القرية أم في دسوق وطنطا والإسكندرية، والقاهرة.. بمصر أم خارجها في ألمانيا في برلين وهامبرج، في سني عمره الأولى أم بعد تخرجه وعمله، فكانت مرتبة زمانيا ومكانيا، كما أن الكاتب لم يكن يعنى بالأحداث الصغيرة كثيرًا، بقدر ما يعنى بالأحداث التي كان لها عظيم الأثر في توجيه حياته، فاتسمت الأحداث بالتدرج المنطقي، وإن بلغت الأحداث ذروتها وأخذت في التنامي والتطور من بداية مرحلة العمل، لاسيما في المراحل التي تولى فيها وظائف قيادية، مديرًا لجامعة الأزهر، ووزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر، وكذلك فيما لاقاه من عنت بعد خروجه من الوزارة، وما حدث له في واقعة محاولة إخراجه من منزله.

وثمة ملمح آخر يتميز به السرد السيري عند الكاتب وهو **حسن ترتيب وتقسيم الفكرة الصغيرة داخل الحدث الكبير**، فيعرض الكاتب مثلا لفكرة ما، فيقدمها للقارئ على طريقة الترتيب المنطقي مستخدما مثلا: أولا ، وثانيا ، وثالثا.. وقد شاع هذا في أكثر من موضع في سرد الكاتب لأحداث سيرته، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على تفكير منظم ورؤية مرتبة، وأسلوب يتبناه الكاتب في طريقة كلامه وكتاباته، ومن ذلك قوله في سرد بعض الأحداث التي وقعت له فترة عمله بكلية اللغة العربية: " وقد كان أستاذنا المرحوم الشيخ "عبد المجيد اللبان"، عميد الكلية إذ ذاك صاحب أفضال عليَّ؛ فأولا: هو الذي رشحني للتدريس بالكلية، واحتفظ لي بالدرجة الخامسة المالية الحالية فيها، رغم الضغوط الكثيرة من الشيوخ عليه. وثانيا: هو الذي مكنني بأن آخذ طريقي في التدريس وفي الامتحان حسبما خططت لنفسي. وثالثا: كان يواجه مروجي الإشاعات بقوة...". [١] ونماذج هذا النمط الأسلوبي لترتيب الكاتب لأحداث سيرته الذاتية كثير، ودلالته الفنية تكمن في تحلي السارد بحسن الترتيب، والتفكير المنطقي في عرض الأمور.

ومن المعلوم نقديا أن قيمة الحدث تسمو عندما يجيد الكاتب إحكام **تسلسل الأحداث من بدايتها، وهو ما يطلق عليه نقديا الحدث المتنامي**، حيث تبدأ السيرة الحكائية في مرحلة معينة

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٤٦.

من حياة الكاتب بموقف ما، ثم يتنامى ويتطور، وتتشابك أحداثه وتتطور، وتتصارع شخوصه، حتى تأتى العقدة، ثم الحل في النهاية، مع ما يتخلل الحدث من عنصر التشويق، ويحدث ذلك عندما يزداد الحدث تطورًا وتأزمًا، فيزيد عنصر التشويق، ويجعل القارئ ينتظر الحل في لهفة، وانفراج العقدة بعد تأزمها.

ومن ذلك في سيرة كاتبنا –وهو كثير– سرده لما كان يروجه زملاؤه في العمل من مروجي الإشاعات من أصحاب النفوس الضعيفة، يقول عن أحدهم: "... وكان يلبس العمامة الخضراء إشارة إلى أنه من "الأشراف"، أخبر الشيخ "عبد المجيد اللبان " –عميد الكلية– بأني كتبت في " مجلة الأزهر" مقالا ضد الإسلام، وكَيَّفَ المقال ضد الإسلام، لأني أرد فيه على الأستاذ الكبير "محمد فريد وجدي" مدير المجلة إذ ذاك، وكان بيني وبينه جدل تناول عدة مقالات حول الروحية، والمادية في المجلة، واستدعاني الشيخ "اللبان" وذهبت إليه.. وعندما سألني الشيخ اللبان عن الموضوع سألته بالتالي: هل قرأت فضيلتكم المقال؟ ولما أجاب بالنفي، فقلت له: إني أربأ بفضيلة أستاذنا أن يحكم قبل الاطلاع، وكان في ردي شيء من العنف أعطاني الحق فيما قلت له، واستدعى الشيخ (المشار إليه)، وعندما قدم سأله: هل قرأت المقال؟ فأجاب بالنفي. ثم سأله مرة أخرى: كيف عرفت أن الدكتور "البَهِيّ" خرج عن الخط الإسلامي فيما كتب؟ ولما أجاب بأنه استنتج ذلك من كون المقال موجهًا للرد على الأستاذ "محمد فريد وجدي".. هنا غضب الشيخ "اللبان" عليه وأهانه إهانة شديدة، ثم اعتذر إليَّ ..."، [1] وهذا حدث صغير اشتمل على عناصر متعددة: عقدة، وصراع، وأشخاص وتشويق..إلخ، وقد اخترته هنا لإيجازه وقصر عباراته؛ وإلَّا فسيرة الدكتور البَهِي الذاتية تحفل بنماذج عديدة من هذا اللون، كصراعه فترة توليه لوزارة الأوقاف وشئون الأزهر، وقصة محاولة طرده من سكنه..، وبالتالي فإن السمة الغالبة على الأحداث عند كاتبنا؛ أنها تتنامى وتتأزم وتأخذ في التشابك، كما يأخذ كل حدث مكانه الطبيعي ليسلمنا إلى حدث آخر مبنى على حدث سابق، وبهذا تكون الوحدة الموضوعية قد تحققت في بناء الأحداث التي جاءت متآخية كلها غير متنافرة ذات هدف واحد، يشير إلى بناء متحد.

ومن أبرز الملامح الفنية للأحداث في السيرة الذاتية للكاتب اشتمالها على ما أطلق عليه النقاد **مصطلح الحبكة، وتكمن في حسن ترتيب الأحداث وتنسيقها، وترتيب بعضها على بعض،** لذا فإن قارئ السيرة يستشعر تطور أحداثها الطبيعي، ونموها المنطقي حتى يتولد الصراع وتأتي

---

[1] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٤٧، وانظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٣/٣٥١–٣٥٢، تجد مثلا رائعا من ترفع كلا الرجلين: محمد فريد وجدي، ومحمد البهي على الصغائر، وموضوعية كل منهما، وإخلاصهما للحق.

العقدة، وهو ما يجعل القارئ ينجذب إليها ويتفاعل مع أحداثها، ترقبا للوصول للحل على شوق، وكثيرا ما أجاد السارد فعل هذا.

وثمة أمر أحب أن أشير إليه في ختام هذا المبحث، وهو أن هذا الملمح الفني يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الموضوعي، الذي أفردت له فصلا كاملا سابقا، فهدفي هنا إبراز السمات الفنية التي امتازت بها الأحداث، ومن ثم فقد تعمدت تقليل النماذج هنا اعتمادًا على ما سبق ذكره، كما أن الكثير من هذه الأحداث يرتبط ارتباطا وثيقا بما سوف يأتي من ملامح السرد فيما يتصل بالأشخاص، والبيئة بعنصريها الزمان والمكان.

ثالثا: الأشخاص:

تمثل الشخصية في السيرة الذاتية أحد أبرز ملامح السرد المهمة، إذ هي العنصر الفاعل الذي يصنع الأحداث، وتدور حوله، فلا يمكن أن نتصور كاتبا يصف حياته ويسجل أحداثها بدون أشخاص؛ لذا " تعد الشخصيات مكونا رئيسا من مكونات النص السردي، إنها القسم الثاني من أقسام الخبر الذي لا تكون الحكاية دونه، فالشخصيات هي التي تجعل الأحداث ذات وجود فعلي.. ودونها لا تكون الأحداث إلا أعمالا خاما لا أثر لها، ومن تفاعل الشخصيات مع الأحداث والإطار الزماني والمكاني تتولد الدلالة"،[١] فالشخصيات هم من قاموا أو وقع منهم أو عليهم الحدث، إذ كل حدث لابد له من مُحْدث.

وكاتب السيرة الذاتية يمثل **الشخصية الرئيسة أو المركزية**، إذ هو السارد وصاحب الحدث، وبالتالي فكل الشخصيات التي يذكرها من خلال علاقات وأحداث، هي شخصيات ثانوية أو فرعية، وإن تفاوتت في الأهمية حسب الدور الذي قامت به، أو حسب تأثيرها في شخصية صاحب السيرة.

وللشخصيات في السيرة الذاتية خاصية تميزها عن غيرها من الفنون الأخرى؛ وهي كونها **شخصيات حقيقية** اتصلت بصاحب السيرة وتفاعلت معه، فلا يوجد مثلا في هذا الفن شخصيات خيالية كما يوجد في الرواية، " فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء، إلا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله".[٢] ومن ثم تتحدد أهميتها الفنية بوصفها أحد ملامح السرد لارتباطها بالسارد –الكاتب أو البطل – بوصفه شخصا من الواقع، وبهذا تصبح الشخصيات جميعها جانبا مشاركا في البناء السردي، وأحد العناصر المهمة والفاعلة في قيام البناء السردي لنص السيرة الذاتية.

---

[١] الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر، محمد آيت ميهوب، الناشر دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، ٢٠١٦م، صـ٢٥١.

[٢] السيرة الذاتية، جورج ماي، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، تونس، ط١٩٩٢م، صـ٨٢.

كما ترجع أهمية دراسة الشخصية والوقوف معها بشيء من التحليل إلى دورها المهم في بناء الأحداث، وتغيير مسارها، بل وتوليد أحداث جديدة يكون لها أكبر الأثر في التأثير على حياة وتوجيه السيرة كلها.

وبعد دراسة الشخصيات في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ؛ تبين أنها جاءت ما بين شخصية رئيسة تقوم بالدور الفاعل المهم، وشخصيات ثانوية مسطحة تؤدى، أدوارًا مساعدة، أو يقع منها أحداث تدفع مسار الأحداث حول الشخصية المركزية أو الرئيسة.

ولأن الشخصية المركزية هنا هي شخصية السارد أو الراوي، وهو هنا صاحب السيرة، فقد تطابقت كلها، فاستخدم للحديث عن شخصيته ضمير التكلم (الياء المتصلة) " حياتي "، بداية من العنوان، فلكل كاتب طريقته في التعبير عن الشخصية " فهناك من يصطنع ضمير المتكلم، وهو شكل ابتُدع خصوصا في الكتابات السردية المتصلة بالسيرة الذاتية.. لما فيه من حميمية وبساطة وقدرة على تعرية النفس من داخلها، عبر خارجها "،[١] وهناك من استخدم غيره في هذا الفن، كما استخدم طه حسين مثلا ضمير الغائب في سيرته، فكان يعبر عن نفسه بقوله "صاحبنا"، ولعل مرجع ذلك غلبة الجانب الفني أو الروائي على أسلوبه عموما، وسيرته خصوصا.

ولم يقف استخدام الدكتور البَهِيّ لضمير التكلم عند حد العنوان، أو التعبير بالياء فقط، بل اتكأ على ضمير التكلم بصوره النحوية المختلفة كياء التكلم، أو تاء الفاعل المضمومة للمتكلم، أو الضمير المنفصل "أنا" وهذا في سيرته كلها. فيعبر عن شخصيته في أول سطور السيرة، بقوله: " أتممتُ حفظ القرآن الكريم وأنا في سن العاشرة ..". وبعدها يقول: " وفي سن الثانية عشرة انتسبتُ إلى "المعهد البرهامي"، ومكثتُ بدسوق ثلاث سنوات، سافرتُ بعدها إلى طنطا.."، [٢] وهذا هو الغالب في السرد الذاتي في تعبير الكاتب عن شخصيته، وفي استخدامه لضمير التكلم في التعبير عن نفسه بوصفه الشخصية الرئيسة، ما يجعلنا نتعايش معه ونصدقه، إذ نستشعر لصوق التجربة بذاته وانبثاقها من حنايا نفسه، وارتباطها الوثيق بالحدث وهو ما يعطيها صفة الصدق أو الواقعية الفنية.

ولعل أبرز ما تميزت به الشخصية الرئيسة أو المركزية في سيرة الدكتور البَهِيّ أن الكاتب استطاع أن يجعلها **شخصية نامية**، وقد اكتسبت هذه الصفة من عدة أمور أبرزها الأحداث، والزمان، والمكان، فهي صفة متطورة حسب سرد الأحداث وتطورها، وبذلك فهي شخصية لها بُعد نفسي ودلالات متجددة مؤثرة في نفس القارئ، فقد تطورت عبر مراحل التعليم المختلفة، وعبر

---

[١] في نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، ط عالم المعرفة، عدد شعبان ١٩٩٨م، العدد رقم (٢٤٠)، صـ٨٢.

[٢] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٢٧.

اختلاطها بالمثقفين والبيئات الثقافية المتعددة، كما كانت دائما تتطلع إلى التطور والتجديد، ولا نغفل ما ذكره الكاتب من انعكاس تصرفات الآخرين على نفسه، وإن لم تستطع أن تغير شخصيته أو تنال من مبادئها.

كما تميزت الشخصية الرئيسة لسيرة الكاتب الذاتية بتصوير البعد النفسي والديني أو الأخلاقي، فهي شخصية مؤمنة بربها، ذكية، قوية، صابرة، مكافحة، مناضلة تتحدى الصعاب وتتخطى العقبات، وتتجاوز الأزمات..

ولأن الشخصيات "جزء من العالم الذي نحياه؛ إما خيرًا وإما شرًّا، كأنها مرآة تعكس عصرنا وقيمنا وآمالنا وآلامنا"،[١] فقد تعددت الشخصيات في السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ، فذكر أسماء أشخاص كثيرين ممن عاملهم أو تعاملوا معه، عبر مراحل حياته المختلفة، يميزه ذاكرة حافظة، فلم أقف مرة في سيرته على قوله مثلا : شخصٌ ما، أو شيخٌ لا أذكر اسمه، بل تميز بذكر أسماء كل الشخصيات التي تعامل معها عبر محطات حياته، وكذلك لم يستخدم الرموز المحيرة، كما يفعل بعض كُتَّاب السير حينما يكتبون الحرف الأول والأخير مثلا لبعض الأسماء لسبب ما، ثم يَدَعُون القارئ في حيرة، كما تميز سرد الشخصية في سيرة الدكتور البهي بالتعلق اليسير عليها، وشيء من التحليل لطباعها بعد ذكر اسمها، إما بذكر بعض صفاتها النفسية أو الأخلاقية التي تمتاز بها.

كما أن هذه الشخصيات لم تأت على قدر واحد، فكان لكل شخصية بُعد فني خاص، فأهمية الشخصية تكمن في كونها تتعدد " بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطباع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود".[٢]

لذا فسوف أعالج هذه الشخصيات الفرعية في السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ من خلال تقسيمها إلى نوعين: شخصيات إيجابية، وأخرى سلبية، لكن ثمة ظاهرة فنية أحب أن أؤكد عليها قبل الوقوف مع البُعد الفني للشخصيات الثانوية أو الفرعية في كتاب "حياتي في رحاب الأزهر.."، وهو أن الدكتور البَهِيّ قد سلك في تقديم شخصياته الطريقة المباشرة غالبًا، وذلك لأنها الطريقة الأنسب مع النمط الفني والأسلوبي للسيرة الذاتية، وفي هذه الطريقة " يقدم – الشخصية– بشكل مباشر مع حرصه على إبراز طباعها وتعيين ملامحها..".[٣]

وفي السطور التالية سوف أحاول سرد بعض نماذج للشخصيات الثانوية التي ذكرها الكاتب في سيرته، والتي أخذت منحيين أو بُعدين فنيين: أحدهما إيجابي، والآخر سلبي.

---

[١] في نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، (م، س)، صـ٧٩.

[٢] المرجع السابق، صـ٧٣.

[٣] سيميولوجية الشخصية الروائية، فيليب هامون، ترجمة سعيد بنكراد، الرياض، ط ١٩٩٠م، صـ٨٠.

أ : **الشخصيات ذات البُعد الإيجابي**، التي مثلت له قدوة ودافعا، وكان لها كبير الأثر في توجيه حياته، ومنها:

١: **شخصية الوالد:** التي وقف عندها من خلال ذكر مواقفها، فصورها في أكثر من موضع في سيرته، بصور إيجابية، تمثل أغلبها في حثه على طلب العلم، وتحمل الأعباء عنه بتوفير النفقة، والإنفاق عليه ببذخ كي لا يشغله بأي شيء يصرفه عن رسالته التي وهبه لها، كما صور ثقته الكبيرة في ولده، وإعطاءه الكثير من الحرية في الاختيار، ونلحظ ذلك عند حديثه عنه في قوله: " وأرسلني والدي إلى "دسوق" تبركا بسيدي إبراهيم الدسوقي لتجويد القرآن الكريم.."، وقوله في موضع ثان في حديثه عن ابن خاله الذي كان يَضِنُّ عليه: ".. رغم أن والدي كان يحثه على أن يهيئ لنا عيشة مقبولة ومعتدلة، ولما تكررت شكواي لوالدي حضر إلى "دسوق" واتفق مع صاحب مطعم يوناني على أن يدفع له مقدمًا كل شهر ثمن وجبة الظهر أتناولها في مطعمه"، وفي موضع ثالث يقول: " وساعدني على ذلك توجيه والدي لي في هذا الجانب، فكان لا يحدد لي مبلغا معينا، وكان لا يسألني عما أنفقه، فإذا ذكرت له رقمًا بالصدفة قلل من شأنه وعاتبني على عدم الاهتمام برعاية نفسي، والسؤال الذي كان يردده لي مدى تفوقي في الدراسة ومدى تحصيلي في العلوم"، وفي موقف رابع في ثنايا الحديث عن رغبته في ترك الانتظام في الدراسة بالقسم العالي بالأزهر وتقدمه مباشرة للامتحان في الشهادة العالمية يقول: " واستشرت والدي فترك الأمر إليَّ، ووعد بالدعاء بالتوفيق، وكعادته أعلن استعداده الفوري والكامل لجميع النفقات التي أحتاجها، وما علي إلا أن أطلب فقط ، وفي الوقت نفسه شجعني بأنها تجربة سوف لا أخسر فيها حتى لو لم أنجح".[١] وهذا النص السردي يظهر للقارئ قدر ومكانة شخصية الوالد في نفس الكاتب، فها هو يرجع إليه، ويستشيره في قراره، فيعينه عليه بل ويدعمه نفسيا وماديا، ويشجعه بالتوكل على الله ما دام في طلب العلم فلا خسارة، لذا كانت هذه الشخصية التي طالما حنت على وليدها، فلم تسلك معه مسلك الشدة في التربية جديرة بالحب والتقدير، وها هو يعترف بذلك عند حديثه عن وفاة والده يقول: " وقد توفي والدي في ديسمبر سنة ١٩٤٢م، وحزنت عليه حزنا عميقا، لأني كنت أحبه وأقدره ".[٢]

ولعل أبرز ملامح السرد في حديث الكاتب عن شخصية الوالد خصوصا، وبقية الشخصيات عموما، أنه لم يكن يُعنى بالاستطراد في وصف الصفات الحسية كالطول والقصر، أو ذكر العادات كأن يقول وكان من شأن أبي أنه يفعل كذا أو لا يفعل إلخ.. وإنما كان حديثه مركزًا

---

(١) حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٣٣.

(٢) المرجع السابق، صـ٤٩.

موجزًا منصبًّا على ذكر الخلال الجوهرية، أو النفسية التي كان لها أكبر الأثر في نفسيته وتوجيه شخصيته، وهي التي تفيد القارئ وتؤثر فيه بوصفها قدوة.

ومما يؤكد ذلك مثلا، ما ذكره عند سرده لشخصية الدكتور " محمد عبد الله ماضي"، الذي كان زميلا له في الدراسة بيد أن الدكتور ماضي كان يسبقه بعام، يقول في ثنايا سرده لمرحلة التعليم الثانوية وإقامته بالإسكندرية :" كما كنت أتوجه لأزور الأخ الدكتور " محمد عبد الله ماضي" في مساكن طلاب المعهد الثانوي.. فإن الأمر الذي كان يجذبني إليه هو خلقه الكريم، وترفعه عن الدنايا والصغائر، ومروءته كرجل لا يصل إلي غيره منه أذى، وصدقه في المعاملة..". [١]

إذا فالكاتب لم يكتف بذكر شخصية مَنْ اختاره ليجالسه أو يسير معه بعض الوقت؛ بقدر ما أخذ يسرد للقارئ خلال هذه الشخصية، وكلها كما رأينا صفات معنوية عقلية وخلقية ونفسية..

ولا مانع من أن يسرد الكاتب بعض الصفات الحسية في تصوير بعض الشخصيات التي أثرت فيه كالأناقة والنظافة، ولكن براعة سرد هذه الصفات تكمن في كون الكاتب كان يجعلها دَالًّا عقليا وتربويا له كبير الأثر عليه أيضا، ونلحظ ذلك في ثنايا حديثه عن إعجابه بشيخ المعهد الثانوي بالإسكندرية الشيخ "محمد عبد اللطيف الفحام" يقول: ".. وكان حريصا على النظام والنظافة معًا، كما كان أنيقا في ملبسه وفي مظهره على العموم".[٢] ونلحظ أنه بدأ أولا بذكر صفة النظام والالتزام، ثم ثنى بذكر الصفات الحسية، وفيها إشارة واضحة أو رسالة ضمنيه عما ينبغي أن تكون عليه هيئة من يمثل هذه المكانة، إذا فتصويره للشخصية هو تصوير لنموذج أو مثل ينبغي أن يحتذى.

وهذه السمة الفنية في تصوير الشخصية عند ذكرها كانت غالبة في السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ، وبذلك فهي تعد شهادة منه للكثير من الشخصيات التي عاملها، لاسيما الكثير من شخصيات الأزهر، كما نرى ذلك جليا عند سرده لبعض مشايخ الأزهر الذين تعامل معهم في فترة قيامه بمهام مراقب عام الثقافة بالأزهر، ومن ذلك قوله: "ويجدر بالذكر: أن الشيخ "عبد المجيد سليم" أحد ثلاثة من شيوخ الأزهر فيمن خبرت، لم يعرف تاريخ الأزهر منذ الحرب العالمية الأولى من هو أكثر منهم حرصًا على كرامة الوظيفة، ومن هو أشد منهم احتفاظًا بوقاره وهيبته، أما الاثنان الآخران فهما الشيخ "المراغي"، والشيخ "مصطفى عبد الرازق"، وإن كان كل منهم يختلف عن الآخر بميزة أو أكثر؛ فالشيخ " المراغي" عُرف بدهائه وبحكمته السياسية، والشيخ "مصطفى عبد الرازق" عُرف بتهذيبه وحيائه، والشيخ "عبد المجيد سليم" عُرف بصدق إيمانه وطيبة قلبه..

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٩.

[٢] المرجع السابق، صـ٣٠.

وكل منهم كان كريم النفس واليد".[١] وفي موضع آخر من سيرته نراه يقول عن الشيخ عبد المجيد سليم: ".. والشيخ عبد المجيد بطبيعته الإيمانية الخالصة بعيد عن الزهو بأية وظيفة مهما سمت".[٢]

وأرى أن أسلوب الكاتب في تناول الشخصيات، أو عرضها والحديث عنها يقترب من نظرة الناقد الذي عرف الشخصية بأنها: "ذلك التنظيم المتكامل الدّيناميكي[٣] الذي يتميز به الفرد، وتتكون من التفاعل المستمر المتبادل بين المنظومات النفسية والاجتماعية".[٤] وبهذا فإن الكاتب كان على وعي تام بما ينبغي أن يسجله في سيرته وهو يقدم الشخصية للقارئ.

٢: شخصيات في مراحل التعليم المختلفة:

من الشخصيات الإيجابية التي أثرت في الكاتب في سني تَعَلُّمِه الأولى، وسجلها في سيرته؛ بعض معلمي "معهد الإسكندرية"، وفيهم يقول: " ويجب أن أذكر بمناسبة المدرسين في "معهد الإسكندرية": أن ثلاثة منهم على وجه الخصوص كان لهم **أثر إيجابي** في فهمي للكتاب الأزهري، وهم: الشيخ "حامد محسن"، والشيخ "محمود شلتوت"، والشيخ " الحسيني سلطان"، وكانوا يجمعون بين الفهم المنظم، والنقد السليم لما يعرضونه من معرفة".[٥] ونلحظ أن الكاتب في وصفه لهذه الشخصيات تبع الأسلوب "السيكولوجي" الذي يتعلق الوصف فيه بكينونة الشخصية الداخلية، من أفكار ومشاعر وانفعالات.. فالذي أعجبه أن أساتذته كانوا يتميزون بالفهم المنظم، والنقد السليم.. إلخ ما ذكر.

وبعد أن سافر الكاتب إلى ألمانيا وعاد منها بعد حصوله على الدكتوراه يذكر ثلاثة من أساتذته، ويرى أن لهم فضلاً كبيرًا عليه، وهم: الأستاذ الكبير الشيخ "الزنكلوني"، والشيخ "محمود شلتوت"، والشيخ "محمد عبد اللطيف دراز".

وشخصية الشيخ "محمد مصطفى المراغي" شيخ الأزهر –رحمه الله– من الشخصيات التي كان لها أثر إيجابي كبير في نفس الكاتب وتوجيه حياته، ويظهر ذلك من خلال حديث الكاتب عنها في أكثر من موضع في سيرته، ووصفه لها بالطريقة التي اتبعها في عرض الكاتب لشخصياته، فيذكره أول مره مثنيا عليه لما قدمه له من تيسير متطلبات استمرار البعثة، والعمل على نقل حسابها من مجلس مديرية البحيرة إلى إدارة الأزهر، كما يذكره مرة ثانية بعد عودته

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ ٣٠.

[٢] المرجع السابق، صـ٥٣.

[٣] الديناميكي: اسم منسوب إلى ديناميكا، ومعناه: فعال، نشيط، ملئ بالقوة والحيوية.

[٤] الشخصية بين السواء والمرض، عزيز حنا داود، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٩١م، صـ٨٢.

[٥] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٧.

ووقوفه بجواره للعمل بجامعة الأزهر، فيقول:" ولم تنقطع علاقتي بالأستاذ الأكبر الشيخ "المراغي". إذ كنت أتردد عليه.. وكان يعجبني منه منطقه وحسن حديثه، واحتفاظه بكرامته، وكانت له هيبة خاصة"،[١] ثم يأخذ –في مواضع متعددة– في ذكر ما لاقاه الشيخ في سبيل الحفاظ على الأزهر، والحرب التي كان يواجهها من المشايخ الذين كان لا يشغلهم إلا طلب المال والدنيا، وفي كل يصور شخصية الشيخ مؤمنة صابرة محتسبة إلى آخر لقاء بينهما قبل وفاة الشيخ، وتأثير هذه الشخصية في الكاتب تكمن من إيمانها برسالة الأزهر، والعمل الجاد على النهوض به، وهو ما أقر به الكاتب بعد حوار دار بينهما اختتمه بقوله:" وأنا تهمني رسالة الأزهر قبل كل شيء"[٢].

ومن الشخصيات التي أخذت بُعْدًا إيجابيا في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِي، وذكرها من خلال وصفها بحميد الصفات وجميل الأخلاق، الشيخ " الخضر حسين" شيخ الأزهر، وكذلك الشيخ " عبد الرحمن تاج".[٣] –رحمة الله عليهما– .

وجمالية سرد هذه الشخصيات بأسمائها وصفاتها، تكمن في كونها حاضرة في نفس الكاتب، كما أثبتت حضورا فنيًّا وشعوريا في سيرته الذاتية.

وعلى هذا المنوال أخذ الكاتب يسرد شخصياته المتعددة ذات البُعد الإيجابي، وقد أكثر الكاتب من سرد أسماء هذه الشخصيات متبعا الأسلوب الذي بينَّا عند عرضها، ساعده في ذلك ذاكرة حافظة حاضرة، ومنهج فلسفي منطقي، وأسلوب أدبي فطري، ولو تتبعنا ذكر جميع أسماء الشخصيات المذكورة في أحداث السيرة لطال الأمر، وهو مالا يتناسب والمنهج المتبع في الدارسة بالوقوف مع أبرز الملامح الفنية للسرد.

ب : <u>الشخصيات الثانوية ذات البُعْد السلبي</u>: التي مثلت بعض العقبات في حياة الكاتب، واستطاع أن يتخطاها من خلال تمسكه بمبادئه وأخلاقه، ومنها:

١: شخصية ابن خاله، الذي أرسله والده في صحبته إلى "دسوق" لتجويد القرآن الكريم، ثم إلى "طنطا" عند الانتساب إلى "المعهد البرهامي"؛ لأنه كان يكبر الكاتب في السن، وقدَّم السارد هذه الشخصية بوصفها إحدى الشخصيات التي كان لها أثرٌ سلبي عليه، ويكفى أن نقف على بعض ملامح هذه الشخصية من خلال ما سرده عنها في قوله: ".. وقد كانت المعيشة في صحبة ابن خالي شاقة سواء في "دسوق"، أو في "طنطا"، فقد كان شحيحًا في الإنفاق، رغم أن والدي كان

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٥٠.

[٢] المرجع السابق، صـ٥١.

[٣] ينظر ما ذكره الكاتب عنهما : "حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٦٢، ٦٣.

يحثه على أن يهيئ لنا عيشة مقبولة ومعتدلة".[١] فهذا الشحّ والتقتير لا يتفق وميول الكاتب الفطرية، بعد أن صور للقارئ نفسه زاهدا في المال، لا يعمل له حسابا قلَّ أو كثر، وفي موضع آخر حينما ذكر الكاتب عدم رغبته في دخول امتحان أول العام لأن حصة الطالب في الجراية، وصندوق النذور مربوطة بالنجاح في هذا الاختبار، يصور لنا حرص ابن خاله المذكور على النجاح في هذا الاختبار، ليس هذا فحسب بل وافتخاره بما يحصل عليه من مكافأة، يقول:".. ولكن آثرت موقفي السابق، رغم أني كنت أرى حصيلة المبالغ التي وصلت إلى ابن خالي وابن عمه معًا، وإشادة والده في القرية بما حصلا عليه من مال"،[٢] وعلى طريقة الكاتب في وصف الشخصيات التي تعامل معها في حياته منذ الصغر من خلال بعض الصفات النفسية والأخلاقية، يذكر أثر حرص ابن خاله على المال مستقبلا فيقول بعين الخبير وحكمة المجرب : " ومن هذا الوقت اتجه ابن خالي إلى تقييم المال بأكثر من قيمته، بينما اتجهت أنا إلى دفع إغرائه عني مهما كانت الحاجة إليه".[٣] وفنية هذا النص تكمن في أن السارد وصف به نفسه، من حيث وصف غيره، وذلك من خلال إحداث مقارنة ضمنية قدمها للقارئ في صورة سرد تقريري لبعض الأحداث.

٢: شخصيات أخرى: من أبرز الشخصيات الثانوية التي أخذت بُعْدًا سلبيا بما قامت به من محاولات لإيذاء الكاتب وكيل الجامعة في فترة عمل الكاتب مديرا لها، وكان يشغل قبلها بجانب أستاذيته في الطب الشرعي بكلية طب "جامعة القاهرة" وظيفة الأمين العام للمجلس الأعلى للجامعات، ويتلخص سبب الخصومة في أنه كان يطمع في منصب مدير الجامعة –رئيس الجامعة حاليا– لاسيما بعد أن ترك الدكتور البَهِيّ الجامعة إلى الوزارة، ويخبر الدكتور البَهِي أنَّه لم يقصر في محاولة تعيينه مديرًا لها، بعد أن عرض اسمه مرتين ولكن لم تنجح محاولته بسبب اتهامه سياسيا بأنه ينتمي لبعض الجمعيات المحظورة، ورغم ذلك يخبر الكاتب أن حرجه الشديد، وحياءه منعه أن يخبره برأي المسئولين وتحفظهم عليه، وحينها ظن وكيل الجامعة أن الدكتور البَهِي يحتفظ بالوظيفة لنفسه بعد خروجه من الوزارة.. وبإيعاز من أصحاب النفوس المريضة، وتحريض بعضهم وقع في محاولات تضييق ومضايقات للكاتب، يقول: " ورغم هذا الجو الذي أحيط بالدكتور " فلان" فإنه كان لاينبغي.. أن يتخذ من أسلوب التحدي ضدي ما يجب أن يترفع عنه هو، بحكم تدينه وإيمانه، وبحكم تقديري له في اختياره في وظيفة وكيل الجامعة، وفي معاونته على أداء رسالته بكل

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٢٧.

[٢] المرجع السابق، صـ٢٨.

[٣] المرجع السابق، صـ٢٨.

ما أملك من سلطة، وما تحت يدي من مال.."،[١] ومما يحمد للكاتب أنه حينما كان يكتب عن نماذج هذه الشخصيات كان يلتزم الموضوعية، ويعطيها ما لها من حقوق، فلا يجردها من جميع خلالها لمجرد الخصومة.[٢]

وعلى غرار هذه الشخصية يسرد الكاتب أسماء بعض الشخصيات، ما بين بعض المشايخ العاملين بالأزهر، وبعض الشخصيات السياسية التي تحزبت عليه دون داع سوى هوي النفس، وفي كل يلتزم الأسلوب نفسه في سرد صفاتها، وتحليل طباعها حتى يخيل للقارئ أنه على معرفة بها.

ومهما يكن من أمر فإن السيرة الذاتية للدكتور البَهِي تميزت بتنوع الشخصات وتعددها، واختلاف أنماطها، وبالنسبة للطريقة التي قدم بها الكاتب الشخصيات فأخذت نمطين الأول منهما: التقديم المباشر –وهو الغالب– وتم ذلك من خلال سرد الكاتب عن نفسه بوصفه الشخصية الرئيسة فهو مصدر المعلومات وهو السارد. والثاني: التقديم غير المباشر في تقديمه للشخصيات الثانوية لأن ذلك يتم حينما يكون مصدر المعلومة عن الشخصية هو السارد، فهو الذي قدمها ولم يترك لها المجال لتقدم نفسها وذلك النمط هو المناسب للسيرة الذاتية، التي يخطها صاحبها بقلمه.

رابعا: (البيئة) الزمان، والمكان:

لا يمكن أن نتخيل سيرة ذاتية بدون زمان وقعت فيه أحداث حياة صاحب السيرة كلها، أو أماكن ارتادها صاحبها نشأة وإقامة وعملا، إذ الزمان والمكان يرتبطان بالأحداث والشخصيات ارتباطا لا يمكن بحال أن ينفصلا عنهما، وبالتالي فإن السرد بمعنى القص يشتمل على حكاية، ومن ثم يرتبط "بالزمان، والمكان" ارتباط امتزاج وتداخل لجميع العناصر، كما يتكئ السارد عليهما في سرد أحداث حياته كلها وتشكيل ملامحها، فهو كائن فيهما أو من خلالهما.

وسوف أحاول في السطور التالية الوقوف مع أبرز ملامح سرد الزمان والمكان الفنية في السيرة الذاتية موضوع الدراسة، محاولا الكشف عن طريقة توظيف السارد لهما بما يعاونه على إبراز سيرته، وتصوير هذه المرحلة أو تلك، من مراحل حياته من خلال دلالة كل منهما:

أ : الزمان:

من المكونات الأدبية المهمة للسرد عنصر الزمن، ومن ثم أولته الدراسات النقدية عنايتها من خلال دراسات متعددة، منها ما عني بتحديد مفهومه وأطره داخل العمل الأدبي، ومنها ما نظر لأهميته أو خاصيته من خلال أثره في تعميق الإحساس بالحدث أو الشخصية، إذ كل حدث أو

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٨.

[٢] انظر: ما ذكره د/ البَهِيّ من عودة الصفاء بينه وبين وكيل الجامعة بعد أن تبين له حقيقة الأمر، " حياتي في رحاب الأزهر.." ، صـ١٢٥.

فعل ما وقع إلا في زمن، وكل شخصية ما عاشت إلا في زمن، وبالتالي فإن ما صدر منها أو وقع لها لا ينفصل عن الزمن، ومن هنا تظهر أهميته في البناء الفني للعمل الأدبي.

ويشير بعض النقاد إلي أهمية الزمن بوصفه مكونا رئيسا في عملية القَصّ ورواية الأحداث، بوصفه عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه، في الوقت الذي يمكن أن نروي الحكاية دون تحديد مكان الحدث، بقوله: " يستحيل علينا أن لا نحدد زمنها بالنسبة إلى زمن فعل السرد؛ لأن علينا روايتها إما بزمن الماضي، أو الحاضر، وإما بزمن المستقبل، وبما في ذلك كان سبب تعيين زمن السرد أهم من تعيين مكانه".(١) بينما يشير بعض النقاد إلى دوره الحيوي في وجود النص فيرى أن: " الزمن كالأكسجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا غير أننا لا نحس به، ولا نستطيع أن نلتمسه ولا أن نراه".(٢)

وعند الحديث عن ملامح السرد الزمني للسيرة الذاتية للدكتور البَهِي، ينبغي أن نعلم أن الكاتب قام بسرد فترة زمنية طويلة نسبيًّا، عُني فيها بسرد الجانب الذي يمثل الكفاح والسعي في حياته تعلما وعملا، وهو الجانب الذي رآه مُهِمًّا في مسيرة حياته، لذا فقد لجأ إلى عدة تقنيات زمنية تتناسب وفكرة كتابة سيرته، فنراه يلجأ في بعضها إلى خاصية تسريع الأحداث، وإلى الحذف أو اختزال الحدث في البعض الآخر، وإن لم يمنع ذلك من وجود التفصيل في فترات معينة منها، ويرجع ذلك لكونه اكتفى بذكر ما رأى أن له تأثيرًا في مسيرة حياته في رحاب الأزهر تعلما وعملا.

فالكاتب مثلا ولد في شهر أغسطس سنة ١٩٠٥م، بيد أن القارئ لسيرته يجده يحذف عشر سنين من عمره، ليقفز مباشرة لسن العاشرة حين حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية، ثم أرسله والده إلى دسوق لتجويد القرآن الكريم، ثم يقفز بالقارئ عامين آخرين ليبدأ الفقرة الثانية من سيرته، وكان في سن الثانية عشرة ليخبرنا أنه انتسب فيها إلى "المعهد البرهامي".

إذا فهناك مدة زمنية محذوفة، أو حلقة عمرية مفقودة بالنسبة للقارئ، وهي من مولده حتى سن العاشرة، حذفها الكاتب من سيرته وسَرَّع الأحداث وصولا لسن العاشرة، فلم يحدثنا مثلا عن زمن مولده، وبيته، وإخوته، وطفولته، ولعبه مع الأطفال صغيرًا.. لقد بدأ زمنيا بسرد ما رآه مهما في مسيرة حياته، أو بمعنى أوضح ما رآه مفيدا للقارئ، وربما كان لمكانته العلمية والاجتماعية –

---

(١) تحليل الخطاب الروائي (الزمن . السرد . التبئير)، سعيد يقطين، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط٣،١٩٩٧م، صـ٦١.

(٢) ألف ليلة وليلة، تحليل سميائي تفكيكي لحكاية حَمَّال بغداد، عبد المالك مرتاض، ديوان مطبوعات الجامعات، الجزائر، ط١، صـ١٥٧.

بوصفه وزيرا سابقا للأوقاف وشئون الأزهر، وأحد رجال الفكر الإسلامي في العصر الحديث– خاصية فرضت عليه عند الكتابة أمورًا، فسجل ما يسمح للقارئ أن يعرفه عن حياته.

وبعد ذلك يأتي الزمن تصاعديا عبر مراحل التعليم المختلفة، حتى البعثة للحصول على الدكتوراه ثم العودة لمصر، ثم مرحلة العمل وأطواره المختلفة مدرسا، ثم أستاذا وصولا إلى مدير الجامعة، ثم وزيرا ، ثم أستاذا مرة أخرى، حتى بلوغه سن التقاعد، ولعل الملمح الزمني البارز في سرده لأحداث حياته، تميزها بالتسلسل الزمني، فجاء التسلسل فيها منطقيا وطبيعيا، لم نرَ فيه فجوة زمنية ناقصة يسأل عنها القارئ.

كما أخذ الزمن في السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ أشكالا متعددة، أبرزها الزمن التاريخي، وساعده في ذلك ذاكرة حافظة، كما رأينا أنواعًا أخرى كالزمن النفسي، والاجتماعي، والديني.

وبنَى الكاتب سيرته الذاتية زمانيًّا في أسلوب القص على فكرة الزمن الاسترجاعي، لكون السارد يقوم بسردها عن طريق التذكر، واسترجاع أحداث حياته التي عاشها، و"يمثل الاسترجاع تقنية زمنية يستطيع السارد من خلالها العودة إلى زمن سابق مرت به ذاكرته.. وهو عكس الاستباق، يسميه البعض الاسترجاع اللاحق أو البعدي، ويعتبرونه سيد أنماط السرد جميعا.."،[١] وتقنية الاسترجاع الزمني هي الأنسب لسرد أحداث السيرة الذاتية منطقيا، لأن نمطها الأسلوبي يقوم على سرد أحداث حياة صاحب السيرة من الميلاد وحتى لحظة كتابتها، وإن كان هذا لا يمنع أن يوظف الكاتب تقنية الاستباق أيضا إن احتاج إليها عند سرد بعض الأحداث لِيُعَرِّفَ القارئ عليها قبل زمن وقوعها.

ثم تأتي آلية ترتيب الكاتب في سرد أحداث سيرته زمنيا، والتي بناها على التتابع والتسلسل بشكل طبيعي، وهو ما أطلق عليه النقاد مصطلح الزمن التعاقبي، وبهذا يمكن أن نطلق على أسلوبه أنه استرجاع تعاقبي.

---

[١] البنية السردية في الرواية : دراسة في ثلاثية خيرى شبلى (الأمالي لأبى على حسن: ولد خالى) / عبد المنعم زكريا القاضى، تقديم أحمد ابراهيم الهوارى، الناشر: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الجيزة، ط١، ٢٠٠٩م صـ١١٠.

أشكال السرد الزمني في السيرة الذاتية للدكتور البهي:

١: الزمن التاريخي: في هذا اللون من السرد الزمني يلتزم السارد سرد الأحداث وفقا للترتيب الزمني الذي وقعت فيه، فتأتي أحداث حياته ومراحلها متسلسلة مرتبة وفقا للتواريخ، وهذا الشكل أحد أشكال الزمن الروائي في سرد أحداث الحكاية " فهو زمن متسلسل يبدأ من نقطة معينة، ثم يسير إلى الأمام حتى تنتهي القصة، والأحداث تكون مرتبة بحسب الزمان حدثا بعد الآخر دون ما ارتداد في الزمان ".[١] وهذا اللون من السرد الزمني هو الأنسب لسرد السيرة القائمة في الأصل على الوصف الدقيق لمراحل الحياة، وهو ما أطلق عليه بعض النقاد مصطلح " الكرونولوجي التاريخي"، ويقصد به " تقسيم الزمن إلى فترات، كما تعني تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث، وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني..".[٢]

وبعد تأمل السيرة الذاتية للدكتور البَهِي نرى أنه التزم في سيرته هذا النوع من السرد الزمني التاريخي المنظم، فكثيرًا ما كان يثبت التواريخ بكل دقة قبل ذكر الحدث، وأرى أنه تعمد فعل ذلك ليسبغ سيرته بالموضوعية في العرض، والمصداقية في القص السيري. فمن ذلك قوله: " وفي٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١م، أذن لنا بالدخول على "الملك فؤاد" للقاء به قبل السفر".[٣]

ويقول:" وقد غادرت السفينة "فيكتوريا" ميناء الإسكندرية إلى "تريستا" في الساعة الخامسة مساء الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣١م"،[٤] والحقيقة أن الكاتب في هذا النص وظف عدة أشكال من تقنيات الزمن منها التاريخي: وهو هنا في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣١م، والفيزيائي : ويتمثل في ذكر الساعة، والدقيقة، واليوم..- وهو هنا في تحديد الساعة الخامسة، والفلكي: الذي يكون في الليل، والنهار..- كما في قوله "مساء".

وفي مواضع كثيرة من سيرة الكاتب نراه يذكر الشهر والسنة عند ذكر الحدث، أو ربما اكتفي بذكر السنة، فمن ذلك قوله: "منذ أكتوبر سنة ١٩٣١م، التحقت بمعهد تعليم اللغة الألمانية للأجانب"،[٥] وقوله: " وفي مايو سنة ١٩٣٦م حصلت على درجة الدكتوراه بدرجة امتياز في

---

[١] غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي، صبيحة زعرب، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٦م، صـ٦٤.

[٢] إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، محمد أحمد النعيمي، دار فارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م، صـ١٧٦.

[٣] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٣٧.

[٤] المرجع السابق، صـ٣٧.

[٥] المرجع السابق ، صـ٤١.

الفلسفة وعلم النفس من جامعة "هامبورج"..."،[١] وقوله وهو يتكلم عن لقائه بالشيخ عبد الحليم محمود –رحمه الله– في كلية أصول الدين " وقد زرته في "فرنسا" في سنة ١٩٣٨م"،[٢] وقوله متحدثا عن وفاة والده " وقد توفي والدي في ديسمبر سنة ١٩٤٢م"،[٣] وقوله متحدثا عن زواجه " وفي سنة ١٩٤٣م، تزوجت بكريمة المرحوم " على الغاياتي"..."،[٤] وقوله عن مولد أولى أولاده " وفي سنة ١٩٤٤م جاءت ابنتي "نادية" إلى الدنيا.."، [٥] وقوله: " وعندما نقلت كمدير عام للثقافة الإسلامية بإدارة الأزهر في سنة ١٩٥٨م، ثم من بعدها إلى الجامعة كأول مدير لها سنة ١٩٦١م، لم أنقطع عن تدريس المحاضرات التي كنت أقوم بتدريسها في كلية اللغة العربية"،[٦] وقوله: " ومضت مدة قصيرة على مباشرتي إدارة الأزهر، نقلت بعدها إلى وزارة الأوقاف وشئون الأزهر في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢م".[٧]

والحقيقة أن هذا الملمح الفني سمة بارزة وغالبة على السرد الزمني لأحداث ومراحل حياته، وقد راعى فيها الكاتب التسلسل، والدقة والترتيب، حتى أنه يضع القارئ على تفاصيل جزئيات حياته بكل دقائقها زمانيا، وعمريا، ونفسيا، وتأكيدا لذلك –إضافة إلى ما سبق من نماذج– نتأمل قوله وهو يصور لنا إحدى مآسي حياته التي مر بها يقول: "حتى إذا صدر كتاب: " تهافت الفكر المادي التاريخي".. في يناير سنة ١٩٧٠م نشطت أمانة الدعوة والفكر الاشتراكي ضد ما كتبته في هذا الكتاب على وجه الخصوص.. وحُمِلَت إليَّ رسالة تهديد.. ولكن لم أنزعج. لأني في ذلك الوقت كنت قد بلغت الرابعة والستين من عمري.."،[٨] فنلحظ أن توظيفه للزمن التاريخي امتزج بالحدث والحالة النفسية، وتصوير بعض المحطات التي مر بها في حياته تصويرا دقيقا ينقل للقارئ جميع تفاصيلها وإيحائها.

وثمة ملمح آخر يرتبط بهذا اللون من الزمن التاريخي، وهو التأريخ لبعض الأحداث الكبرى التي عاصرها – داخل مصر وخارجها– وإظهار أثرها في نفسه ومن ذلك: قوله وهو يصور الخلل الذي وقع في جامعات ألمانيا على إثر طرد الأساتذة اليهود من الجامعات الألمانية، وفي

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٤٤.
[٢] المرجع السابق ، صـ٤٨.
[٣] المرجع السابق ، صـ٤٩.
[٤] المرجع السابق نفسه.
[٥] المرجع السابق ، صـ٥٠.
[٦] المرجع السابق ، صـ٦١.
[٧] المرجع السابق ، صـ٨٠.
[٨] المرجع السابق، صـ١٤١.

جامعته التي يدرس فيها : " فهتلر تسلم الحكم في "ألمانيا" في ٣١ يناير سنة ١٩٣٣م، وكان يعادي اليهود بسبب أنه كان يراهم هم مصدر الهزيمة في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩٤١م"،[١] وشبيه بذلك قوله:" انتهت الحرب العالمية الثانية في ٨ مايو سنة ١٩٤٥م، وسافر الأستاذ الأكبر مع الملك فاروق إلى القصاصين ..". [٢]

وقوله وهو يصور تلون بعض الشخصيات: ".. إذ لا يريد أن يُعرف عنه: أنه كان على صلة بالسكرتير الخاص بالملك "فاروق" بعد أن قامت الثورة في ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م..".[٣]

ومن نماذج ذلك أيضا تسجيله لتواريخ تولي ووفاة بعض مشايخ الأزهر الذين عاصرهم، كقوله بعد الحديث عن زيارته للشيخ المراغي بمستشفى "المواساة" : " توفي الشيخ " المراغي" في ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٥م. أي بعد هذا اللقاء بأيام قليلة، ثم اختير المرحوم الشيخ " مصطفى عبد الرازق" شيخا للأزهر، بعد معركة قانونية عنيفة.."، [٤] وقوله: " واستمرت مشيخة الشيخ "مصطفى" إلى أن توفي بعد عيد ميلاد "الملك فاروق" في فبراير سنة ١٩٤٧م..".[٥]

والحقيقة أننا لو تتبعنا هذا الملمح الفني من سيرة الكاتب نصا وتحليلا؛ لسودنا فيه الصفحات؛ لكثرة ما سرده الكاتب، وما سجله زمنيا من أحداث، ارتبطت حياته بها وأثرت في مسارها، وجاء تسجيله لزمنها التاريخي دقيقا مركزا، أعانته عليه ذاكرة حافظة، وعقلية مفكرة مرتبة.

٢: الزمن النفسي :

تختلف دلالات الزمن عند سرد الأحداث المتعلقة به إيجابا وسلبا، وسرورا وحزنا، وبراعة الكاتب تظهر في إجادة تشكيل الزمن بإيحائه المختلف خلال مرحلة معينة، حسب مردود الأحداث أو الشخصيات أو الأماكن على ذاته، لذا فإن النقد " يفصل بين نوعين من الزمن، الزمن الحدث... والثاني نفسي خطي ولا متناهي؛ وله مطابقته عند الإنسان، وهو المدة المتغيرة، والتي يقيسها كل فرد حسب هواه، أحاسيسه وإيقاع حياته الداخلية".[٦] ولعل سرد الزمن النفسي في السيرة الذاتية من أعلق أنواع الزمن لصوقا بها، وهذا لا يقلل من شأن الزمن التاريخي بل هو مرتبط به، أو منبثق منه فلا يستغني عنه، إذ ما هدف السارد في السِّيرة الذاتية عند سرد زمن معين، أو حكاية في زمن معين، إلا مدلول هذا الحدث وبيان وقعه على نفسه؟ ومن ثم فإن هذا اللون من

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٤٣.

[٢] المرجع السابق ، صـ٥٢.

[٣] المرجع السابق ، صـ٥٨.

[٤] المرجع السابق ، صـ٥٢.

[٥] المرجع السابق ، صـ٥٣.

[٦] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، صـ٦٤.

الزمن هو أقدر الأنواع على إثبات تعالق عناصر السرد وتداخلها، فالأثر النفسي (السيكولوجي) لزمن ما عند الكاتب منبثق من حدث، أو مردود لمعاملة شخص وتصرفاته، أو نتيجة حتمية لوقوعه في مكان ما، ويؤكد هذه الحقيقة أحد النقاد في قوله: " إن الفراغ أو المكان هو زمن ساكن، في حين أن الزمن هو فراغ أو مكان متحرك"،[١] وهذا اللون من ألصق الألوان بالدراسة الأدبية لكونها تنصب على تصوير الجانب الداخلي والنفسي للمبدع.

والحقيقة أن الزمن في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ على امتداده له خاصيته الزمنية المصورة لنفسيته، ويحمد له تعمده لهذا الجانب الذي تميز به التشكيل الزمني لأحداث سيرته، إما بالتصريح، وإما بالإيحاء المستنبط من سياق الأحداث الواقعة في هذه المرحلة، وأرى أن مرجع ذلك – إضافة إلى ما رزقه الله به من نفس حساسة مرهفة – تخصص الكاتب في دراسة علوم الفلسفة وعلم النفس، وتدريسه لها وتعمقه فيها، مما عاونه على إجادة تصوير ما عاناه، وما مر به من فرح أو ترح، ومن نماذج ذلك في سرده لبعض أحداث سيرته: ما أخبرنا عن نفسه وهو في سن الثانية عشرة من عمره أنه مكث بدسوق ثلاث سنوات، للالتحاق بالمعهد البرهامي، ثم سافر بعدها إلى طنطا للالتحاق بمعهدها، ويأبى الكاتب أن ينتقل من هذه المرحلة الزمنية والتي حدد فيها عمره وسنوات دراسته –الزمن التاريخي– إلا أن يصور لنا جانبًا مما عاناه في هذه المرحلة، والتي اختزل بعضها في معاملة ابن خاله –الذي كان مسئولا عنه–، فقد كانت المعيشة في صحبة ابن خاله شاقة سواء في دسوق، أو في طنطا.

وشبيه بهذا تصويره للجانب النفسي عندما انتقل إلى " المعهد الثانوي بالإسكندرية" يذكر أنه حينما ترك "الورديان" إلى "بحري" بالقرب من سيدي " أبو العباس المرسي"، لم يسترح في السكنى مع الطلاب في سراي المسافر خانة، وبالتالي اتفق مع الدكتور "ماضي"، والشيخ " عبد الله المشد" على السكنى خارجها. وحينما انتقل إلى "القاهرة" للالتحاق بالأزهر، وكان سنه في هذا الوقت بلغ الحادية والعشرين، يذكر أنه أول أمره كان حزينا للتغيير الذي طرأ على حياته، يقول: " وقد كنت حزينا في نفسي للتغيير الذي طرأ على حياتي هنا في "القاهرة"، ثم تردد في نفسي أمر سيكون له تأثير بالإيجاب أو بالسلب على مستقبلي".[٢]

كما يذكر فترة زمنية أخرى يسجل فيها لبعض الأحداث التي وقعت له بعد عوته من ألمانيا، وعمله بالجامعة فيقول:" وجاءت الحرب العالمية الثانية، وأنشئت وزارة التموين– وأنا أتشاءم بهذه الوزارة– فمنذ أنشئت في سنة ١٩٤٠م، حتى الآن والحديث عن الخبز الأبيض حديث خرافة،

---

[١] الزمن بين العلم والفلسفة والأدب، إميل توفيق، ط دار الشروق، القاهرة، ط الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، صـ١٢٥.

[٢] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٣٢.

والحديث أيضا عن كمية الغذاء، وكمية الأقمشة الشعبية.. ولا أستطيع أن أدعي أني عشت حياة قليلة المشاكل منذ عودتي من "ألمانيا" حتى الوقت الحاضر".[١] فلم يقف الكاتب عند حد سرد الزمن التاريخي، وإنما تخطى ذلك لتصوير حالته النفسية، وما كان يعانيه في هذا الوقت.

وشبيه بذلك ذكره للعام الذي توفي فيه والده وأثره السلبي في نفسه ، وعكسه العام الذي تزوج فيه وأثره الإيجابي، والعام الذي أنجب فيه، وغير ذلك..

ومن الأزمنة التي سرد فيها الكاتب بعض الأحداث المريرة التي مر بها في حياته، حديثه عن إحدى رحلاته العلمية إلى "كندا" حيث كان يدرس بجامعة "ماكجيل" الواقعة في مدينة "منتريال" وفيها يقول: " في سنة ١٩٥٥/١٩٥٦م الدراسية، قمت بتدريس الحركات الإسلامية المعاصرة في معهد الدراسات الإسلامية الملحق بكلية اللاهوت هناك، وقد أشفقت على نفسي في هذا العام من أن أموت حزنا، على ما يباشره المستشرقون ضد الإسلام في الغرب والشرق على السواء.."، ثم يأخذ الكاتب في سرد منهج هذا المعهد وأسلوبه في عرض مبادئ الإسلام، وتعمد القائمين عليه تدريس ما يدعون أن فيه تناقضا في القرآن –عياذا بالله– وكيف يتم جلب الطلاب من البلاد الإسلامية؟ وعلى أي أساس يتم اختيارهم؟ إلى غير هذه الأمور، وتسجيل الكاتب لهذه المدة الزمنية من حياته إنما هو تصوير ذاتي لجوانب نفس هزها الألم، وكابدت المعاناة والحزن؛ لما يحاك ضد الإسلام في غفلة أصحابه، وربما بمعاونة بعضهم، مع ما ضمنه السارد من ذكر عناصر السرد المكان والأحداث والأشخاص التي كانت جديرة بتجسيد هذا المعنى اللامحسوس للزمن وإظهاره نصا ملموسا للقارئ، فالأصل في الزمن أنه " مظهر نفسي لا مادي، مجرد لا محسوس، ويتجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر".[٢]

وفي فترة العزلة –كما سَمَّاها– صور الكاتب بقلمه إحدى الأحداث التي كان لها أثر إيجابي في حالته النفسية في هذه الفترة الزمنية، يقول: "وجاءتني دعوة من حكومة الجزائر في سنة ١٩٦٨م، وكان صاحب الفضل في التنبيه إليها الدكتور "توفيق محمد شاهين" الأستاذ الآن بكلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر، وهو من أبنائي المخلصين.."،[٣] ويستطرد الكاتب في سرد أحداث هذه الحدث الزمني، والذي يظهر أنه أخرجه من عزلته شيئا ما، وجعله يستشعر أنه لم يُنس تماما، فإن نسيه رجال السياسية فإن طلابه المخلصين لم ينسوه، لذا فقد أثنى على من كان سببا في هذه الدعوة فوصفه بأنه من أبنائه –وليس من طلابه– المخلصين، إذا فإن كاتبنا حينما سرد

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٤٨.

[٢] في نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، (م ، س)، صـ٢٠١.

[٣] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٤١.

أحداث الفترة الزمنية لعام ١٩٦٨م، سردها سردًا بدلالاته النفسية، وبيان أثرها على وجدانه ودخيل ذاته.

ولعل أقوى النصوص السردية في السيرة الذاتية للكاتب دلالة على تصوير الزمن في سيرته الذاتية للجانب الوجداني أو النفسي؛ هذا النص الذي سرده في أخريات سيرته، حيث اختزل للقارئ فيه خطا زمنيا طويلا بكل ما يحمل من آلام نفسية، من خلال الكثير من الأحداث المريرة التي عاشها، وشخصيات قلما وجد فيها مُعِيْنا له على رسالته الإصلاحية في الأزهر، يقول:" فقد سبق أن ذكرت.. بعد عودتي من ألمانيا سنة ١٩٣٩م: أني لم أستمتع بالحياة في مصر منذ قيام الحرب العالمية الثانية حتى هذه اللحظة التي أعيشها الآن، فهي حياة قائمة على النفاق، والأنانية، والانتهازية، سياسيا واجتماعيا.."، [١] وبالتالي فكل تأريخ زمني في السيرة الذاتية للدكتور محمد البَهِيّ ما هو إلا تصوير لمعانٍ كامنة في نفسه، تعبر للقارئ عن مسيرة حياة غلفها الكفاح والجد في مقابل التسلط غير المبرر، والتحدي لطاقة علمية ونفسية ذات وجهة إصلاحية ما رأت لنفسها يوما مكانا خارج المؤسسة العلمية العالمية الأزهر وقاعاته الدراسية. وبالتالي فإن الزمن في سيرة الدكتور البَهِي تشكل من خلال خبرات وتجارب، وجسد في كل حدث وقع فيه شعورًا نابضًا مصورًا للقارئ جانب الفرح أو الحزن، اليأس أو الأمل، القلق والخوف، أو الطمأنية والسكينة..

٣ : أزمنة أخرى:

تضمنت السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ أشكالا عدة للسرد الزمني أبرزها أو أهمها ما سبق ذكره، وإن لم تعدم أنواعًا أخرى كالتشكيل السردي بالزمن الديني، أو الزمن الاجتماعي، أوالزمن الفلكي، والفيزيائي.

<u>فالزمن الديني:</u> يعنى به أن يوظف الكاتب المواسم أو الأزمنة الدينية في تسجيل الحدث كشهر رمضان، وأيام العيد.. وغير ذلك، وقد وظف الكاتب مثل هذا اللون الزمني –وإن كان قليلا مقارنة بغيره–، فمن نماذجه التي سردها وحملها بُعْدًا إيجابيا، ما سجله عن يومي الجمعة وعيد الفطر، فترة إقامته بـ"كندا" للتدريس بجامعة "ماكجيل" بمدينة "منتر يال" سنة ١٩٥٥/١٩٥٦م الدراسية، لتدريس الحركات الإسلامية المعاصرة في معهد الدراسات الإسلامية الملحق بكلية اللاهوت هناك، وهنا يوظف الكاتب هذه الأيام لإظهار نشاطه الدعوي، ويسجل فيها بعض الأحداث المهمة في مسيرته لخدمة الإسلام وغرس مبادئه في نفوس أبنائه لاسيما المغتربين منهم، ففي يوم الجمعة من كل أسبوع يقول: "اتفقنا على إقامة صلاة الجمعة في قاعة من قاعات المعهد، ثم واظبنا على

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٤٢.

إقامتها، ثم تكونت من الطلاب جمعية اتصلت بالمسلمين المقيمين في منتر يال"،[١] كما يسجل أحداث يوم عيد الفطر في هذا العام بما جدد فيه في هذه البلاد من إقامة صلاته، وتجميع المسلمين على شعيرته يقول: " وفي يوم عيد الفطر دَعَتْ – الجمعية المؤلفة من الطلاب– جميع المسلمين هناك إلى صلاة العيد في منزل اللواء "عبد الحميد سليمان"، وكان ممثلا لمصر في منظمة الطيران المدني، وكانت له زوجة فاضلة ومنسبة، وكانت قدوة حسنة للمرأة المسلمة التي تعيش في الخارج في تحديها للعادات السيئة التي تمارس في الحياة الأمريكية، وقد ألقى خطبة العيد الشاب المسلم الدكتور "هشام نشابة"، وهو الآن مدير التعليم بالمقاصد الإسلامية ببيروت"،[٢] فالكاتب يتعمد سرد هذا الزمن الديني ببعده الإيجابي ليظهر ما فيه من مشاعر الغبطة والفرح بما وقع فيه من أحداث أو قام به من أنشطة، ولا يخفى ما وظفه الكاتب من ذكر بعض أسماء الشخصيات، ووصف سماتها النفسية العلمية والخلقية، وكذلك الأماكن، وهذا كله ما هو إلا تجسيد لتكامل عناصر السرد المؤلفة من أحداث وزمن ديني معين بشخوصه وأماكنه ومجرياته.

ومن نماذج الأزمنة الدينية التي سردها الكاتب وحملها بُعدًا سلبيا بسبب ما وقع له فيها، تصويره لفترة الإرهاب والقلق التي تعرض لها وأسرته، وخوفهم الشديد أن يطردوا من مسكنهم الذي يأويهم، فيسرد أحداثا لمقابلات كثيرة لمساومته أو تهديده بغية ترك مسكنه، ومن ذلك أنه دُعِي يوما لمقابلة إحدى الشخصيات الكبيرة في مكتبها الساعة السابعة مساء يقول:" وكُنَّا في رمضان، وبعد الإفطار وصلاة المغرب ذهبت.."،[٣] فالنص وإن سجل زمنا دينيا معينا؛ إلا أنه يشير إلى قدر المعاناة التي عاشها الكاتب، لا سيما في هذه المواسم المباركة التي يخلو فيها بال الناس للعبادة والطمأنينة، كما يشير إلى قدر الحسرة والأسى لعدم احترام حرمات هذه الأزمنة بإيذاء الناس، وعدم مراعاة مشاعرهم.

<u>الزمن الفلكي</u> : وفيه يسرد الكاتب بعض الأحداث التي وقعت له في بعض الفصول كالصيف، والشتاء، والربيع، والخريف..

ومن نماذجه في سيرة كاتبنا ما سجله عن نشاطه العلمي في فصل الصيف فترة تواجده بألمانيا يقول: " كما سعيت سعيا جادا في تعلم اللغة الإنجليزية، سواء في "هامبورج"، أو في "لندن"، أثناء العطلة الصيفية..".[٤]

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٢٩.

[٢] المرجع السابق نفسه.

[٣] المرجع السابق ، صـ١٣٣.

[٤] المرجع السابق، صـ٤١.

وفي موضع آخر من سيرته يسرد الكاتب بعض الأحداث التي وقعت له بعد خروجه من الوزارة وبلوغه سن المعاش واعتكافه بالمنزل، ومنها السرقة التي وقعت لمنزلة في صيف ١٩٧٧م.

الزمن الفيزيائي: وفيه يركز الكاتب على سرد اليوم ، والشهر، والسنة، والدقيقة، والساعة.. ونماذج هذا اللون ترتبط بالزمن التاريخي – وقد مر الكثير من نماذجها– لأن الكاتب قلما يذكر عاما إلا ويذكر –غالبا– اليوم والشهر، ودلالة هذا اللون من الزمن دقة الكاتب وقوة حافظته من جانب، ومن جانب آخر أثر هذا الحادث في نفسه حتى استحق أن يسجله بكل دقة، بل بتفاصيله الزمنية التي لا تقبل الشك.

والحقيقة أن أنواع هذه الأزمنة متداخلة لكونها تهدف في النهاية لتسجيل أحداث مرحلة معينة من حياة الكاتب، من خلال سرد وقائعها بإيحائها ودلالاتها المختلفة، لكنَّ منهجية الدرس النقدي – من خلال ما سجلته جهود النقاد وآراؤهم – هو ما فرض علينا هذا الاستطرد في تحليل مثل هذه التقسيمات، التي تسعى لإبراز جماليات الملامح الفنية وتقنيات السرد في النص الزمنى موضوع الدراسة.

ب : المكـان :

يقصد بالمكان الموضع أو الحيز المكاني أو الفضاء الذي يدور فيه الأشخاص، أو البقعة من الأرض – محدودة كانت أو مفتوحة – التي نص عليها السارد ضمن تسجيل حدث أو مرحلة بعينها، ويكمن جمال المكان بهذا المعنى في كونه يتخطى حدوده ومواقعه الجغرافية، ويكتسب بُعدًا جماليًّا، نفسيًّا كان أو اجتماعيا أو دينيا، فالسارد البارع هو الذي " يستطيع أن يتعامل مع حيزه تعاملا بارعا؛ فيتخذ منه إطارا ماديًّا يستحضر من خلاله كل المشكِّلات السردية الأخرى مثل الشخصية، والحدث، والزمان.. إنه خشبة مسرح واسعة تعرض الشخصيات من خلالها أهواءها، وهواجسها، ونوازعها، وعواطفها، وآمالها، وآلامها.. تحب إن أحبت، عليه؛ وتكره إن كرهت، من خلاله.."،[١] وبهذا فإن المكان يتخطى الجانب الشكلي أو البقعة الجامدة، ليرتكز في وظيفة جوهرية لها دور سردي يسجل الأحداث ويساعد في تفسيرها، والمكان في السيرة الذاتية يختلف عنه في الرواية والقصة، إذ يمكن أن يكون فيهما خياليا، لكنه هنا مكان واقعي ملموس له حدوده الجغرافية، عاشت فيه الشخصيات وتحركت على جنباته المختلفة، وإن لم يفقد دلالاته الرمزية والإيحائية والنفسية.

ومن خلال الوقوف على هذا الملمح السردي – المكان– الذي وقعت عليه أحداث السيرة الذاتية لمراحل حياة الدكتور البَهِي، نجد أن الأمكنة جاءت متعددة، ومنوعة: ما بين أمكنة مغلقة، وأمكنة مفتوحة، ويمكن الوقوف معها بشيء من التحليل في السطور الآتية:

---

[١] في نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، صـ١٣٥.

١ : الأمكنة المغلقة:

ونقصد بها الأماكن المحددة التي عاش فيها الكاتب وتعلم أو عمل فيها، كالبيت، والكُتَّاب، والمعهد، والكلية، والمكتب.. إلخ، والحقيقة أن هذه الأمكنة وردت في سيرة الكاتب بصورة كبيرة، ومرجع ذلك حرصه على تسجيل أحداث حياته في مراحلها المختلفة، وأول ما يقابلنا فيها حديثه عن " كُتَّاب الشيخ محمد الديب"، ومن حديث السارد عنه نجد أنه مكان يوحي بالفخر والاعتزاز، فقد حفظ فيه القرآن الكريم وهو في سن العاشرة، ولم يحدثنا الكاتب عن أية أحداث أخرى وقعت فيه، لكن الكاتب حمله معنى كبيرًا، فهو أولى مدارسه التي ارتادها، كما أنه بَعْدَ ذلك رمز لهويته، فنحن نتعامل مع عَالِمِ بدأ حياته العلمية في كُتَّاب ريفي، يرمز إلى غرس الكثير من القيم التي توارثناها، ومن ثم فينبغي الحفاظ عليها، والانطلاق في فهم الشخصية مستقبلا من خلالها.

ثم تأتي " الحُجْرة " التي سكنها في "دسوق" لتحمل بُعدًا سلبيا، فقد كانت على حد وصفه حجرة متواضعة يسكنها في صحبة ابن خاله، وقد كانت المعيشة في صحبته شاقة لكونه شحيحا في الإنفاق يقدر المال بأكبر من قدره، ومن ثم فإن الكاتب يومئ إلى عدم راحته في هذه الحجرة بسبب ساكنيها، ولكنه كان مضطرًا إليها حتى تنتهي هذه المرحلة التعليمية.

ثم يأتي " معهد الإسكندرية الديني" ليعطي لنا الكاتب من خلاله بُعدًا تعليما كان له أكبر الأثر في نفسه فيما بعد، وذلك من خلال مَنْ درسوا له لاسيما مادة البلاغة التي أفاض في ذكر أساتذتها وما حققه فيها من تفوق، وأسماء مَن زاملهم، ففي الإسكندرية أقام بمبنى "المعهد الابتدائي في الورديان"، واتصاله بالشيخ" عبد الله المشد" الذي أثنى عليه بقوله :" وكان نعم الزميل والصديق، واشتركت معه ومع آخرين في المعيشة على عادة الطلاب هناك.."[١] وشتان بين ما توحي به دلالة الألفاظ والجُمل في هذا النص من تصوير الأريحية في تلك الأماكن والاعتزاز بذكرها، وما كان عليه في الحجرة الضيقة التي كان يقطنها مع ابن خاله!.

وبعد هذه المرحلة ينتقل للمرحلة الثانوية فيحدثنا عن مكان آخر، له دلالته الخاصة وأثره في نفسه، فيذكر شقة أرضية استأجرها في عمارة الفقي في رحاب أبي العباس ليقطنها هو وصديقه الدكتور ماضي، وزميله الشيخ" عبد الله المشد" وكانت ذات دلالات إيجابية متعددة حيث وجد فيها الراحة البدنية والنفسية، التي كانت سببا في هدوئه وتهيئة أسباب التفوق، وما أجمل ما سرده الكاتب حينما صور ما يوحي به هذا الفضاء المكاني نفسيا يظهر في قوله: "..وجزى الله الشيخ "المشد" كل خير فقد تحمل أعباء السكن، والإنفاق على المعيشة لنا.. وبذلك كان يوفر لنا الوقت للمذاكرة..". [٢]

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٢٩.

[٢] المرجع السابق نفسه.

وينتقل الكاتب إلى مرحلة جديدة بالقاهرة ليلتحق بالجامع الأزهر، ولكنه يصور هذه البيئة المكانية التعليمية تصويرًا يَنِمُّ عن عدم راحته، وذلك لكثرة الطلاب وعدم النظام الذي وجده في المعهد الذي سبق هذه المرحلة، لذلك قرر أن يجد لنفسه مخرجا حتى يبتعد عن هذا الجو، يقول: "وقد كنت حزينا للتغيير الذي طرأ على حياتي هنا في القاهرة"، [١] إن الكاتب له طبيعة نفسية خاصة فهو يميل إلى النظام، والهدوء والتأنق في نمط الحياة، والحرص على معالي الأمور، ومن ثم فحينما جاء إلى مقر الدراسة بالقسم العالي في "الأزهر"، ووقتها كان النظام المعمول به في التدريس هو نظام الحلقات والأعمدة، وبعد انتهاء الدرس ينطلق الطلاب في عشوائية ولهفة لتسلم الجراية وهي عدد من الأرغفة، هنا أدهشه المشهد، واستشعر الغربة، ومن ثم أخذ قراره مباشرة في مغادرة هذا المكان، وذلك بترك الانتظام في دراسة السنوات الأربع بالقسم العالي، ليتقدم مباشرة إلى الامتحان في الشهادة العالمية، ولا يخفى أن الصورة التي سرد الكاتب من خلالها المكان تحمل أيضا بُعدًا زمانيا وتاريخيا بجوار دلالتها النفسية على السارد، فقد أرَّخَت لما كان عليه هذا المكان الدراسي العتيق "الجامع الأزهر" في هذا الوقت من أسلوب الدراسة، وانتظام الطلاب على الأعمدة، وطريقة غذائهم وهو بُعْدٌ واقعي أو موضوعي.

ويبتعد الكاتب ليجد مكانا آخر ربما أكثر هُدوءا وراحة نفسية – بالنسبة له– ليحصّل فيه دروسه، يقول: "وتوكلت على الله وقللت من حضور الدروس في "الأزهر"، واعتمدت على جهدي الخاص وذهبت إلى "مسجد الحسين"، في الصباح وبعد الظهر إلى صلاة المغرب..".[٢] وبالفعل يتخطى الكاتب هذه المرحلة لمرحلة دراسات التخصص، والتي كانت مدتها ثلاث سنوات ليسكن مع زميله الدكتور "ماضي" في حي "باب الخلق" لمدة سنتين لأن الدكتور "ماضي" تخرج قبله بسنة.. وهنا يعطى المكان ظلاله بالراحة واستقامة الحياة، وسَعْي الكاتب لتحقيق غايته التي خرج من قريته لأجلها.

وهذه هي أبرز الأماكن المغلقة التي ذكرها الكاتب في المرحلة الأولى من عمره، وهي مرحلة بداية التعلم من كُتَّاب قريته، وصولا إلى "الأزهر" بالقاهرة.

ولعل أبرز ما يمكن استنتاجه في هذه المرحلة من سيرة الكاتب؛ أنه ركز على ذكر البيئات العلمية، فالأمكنة التي سردها في سيرته كلها أمكنة تحمل بُعْدًا علميا ودَالا ثقافيًّا، حتى السكن الخاص فهو يرتبط بها ارتباطا جوهريا من حيث تعلقه بوجوده فيها حضورًا وغيابًا، ومن يصحبهم في هذا السكن من زملاء دراسة، وما كان لها من أثر في أحداث سيرته، كما استطاع الكاتب أن

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٣٢.

[٢] المرجع السابق ، صـ٣٥.

يصور للقارئ قدر ما لاقاه من تعب وعناء، جعلت القارئ يتجاوب معه ويتفاعل بل وربما يتعاطف معه، كما نلحظ أن الكاتب لم يعبأ بتصوير أي من نواحي الجمال الحسي أو الجامد في أي مكان ذكره في هذه المرحلة، وإنما كان تركيزه على البُعْدِ النفسي إيجابا وسلبا.

وتأتي مرحلة أخرى وهي مرحلة السفر إلى ألمانيا، وأولى الأماكن المغلقة التي ذكر الكاتب تواجده بها هي الباخرة "فيكتوريا"، التي مكث فيها هو وزميله فترة سفره، وهو مكان متحرك يحمل عند الكاتب أكثر من بُعد لعل أبرزه فخره به واعتزازه بهذا الأمر، وكأنه نال به شرفًا كبيرًا، فهو يشكر لعبد السلام باشا الشاذلي أنه كان السبب في سفره على هذه الباخرة، يقول مزهوا " وقد غادرت السفينة "فيكتوريا" ميناء الإسكندرية إلى "تريستا".. وكانت تعتبر عروس البحر الأبيض المتوسط، وهكذا أبى "الشاذلي باشا" إلا أن يكرِّم رجال الأزهر.. واستمرت الرحلة واستطعنا أن نستمتع بها بعض الفترات حتى وصلنا إلى "تريستا".. ".[1] فالباخرة وإن كانت وسيلة للسفر إلا أن الكاتب تعمد ذكرها بوصفها مكانًا مشحونا ببعض الذكريات السعيدة بالنسبة له، ولعله أراد أن يشير إلى تغير لون الحياة في عينيه منذ لحظة السفر، والتي بدأت بالباخرة الفخمة التي تحمل عِلْيَةَ القوم بعد أن وجد نفسه وزميله بينهم.

وفي ألمانيا نجد سردًا لأسماء الأماكن التي درس فيها الكاتب أو سكنها، كمعهد تعليم اللغة الألمانية للأجانب، وهو معهد ملحق بجامعة "برلين"، وجامعة "هامبرج" بألمانيا، وهذه الأماكن في سيرة الكاتب ترمز للعلم والتقدم والانفتاح على العالم الآخر بالاطلاع على علومه وثقافته، ومن اللافت في هذه المرحلة أن الكاتب لم يُعْنَ بسرد أية أمكنة أخرى ارتادها في هذه الفترة، فلم يسجل يوما أنه ذهب إلى السينما مثلا، أو كان يلتقي ببعض الزملاء في مقهى أو مصيف معين للترفيه.. إلخ، وإنما انصبت عنايته على سرد دور العلم، ووصف أسلوب التعليم ومراحله، وأبرز من كان يدرس فيها من الأساتذة، والأشخاص الذين التقى بهم.. وهو ما يصور لنا حياة الجد التي أخذ الكاتب نفسه بها منذ الصغر، وانشغاله برسالته التي سافر من أجلها.

وبعد انتهاء الكاتب من البعثة وعودته إلى مصر يأخذ في سرد أسماء الأماكن التي عمل بها، مثل كليتي أصول الدين، واللغة العربية، اللتين عمل فيهما مدرسا للفلسفة وعلم النفس، ومبنى إدارة الثقافة بالأزهر الذى شغل فيه وظيفة مدير عام هذه الإدارة.. والحقيقة أن هذه الأماكن جاءت في سيرة الكاتب مشحونة بالدلالات، كالفخر والاعتزاز بالعلم وتعليمه، وما كانت تحفل به هذه القلاع العلمية من علماء، وفي الوقت نفسه ما عاناه من شحناء وحسد من أصحاب النفوس الضعيفة من أدعياء العلم في هذه المرحلة، وتصوير قدر الأعباء الملقاة على كاهله.

---

[1] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٣٨.

ومن الأمكنة المغلقة التي ذكرها الكاتب في هذه المرحلة منزله الذي تزوج فيه بالعباسية الشرقية، ومنزل الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي بحلوان، ومنزل الشيخ مصطفى عبد الرازق بمنشية البكري... وسرد مثل هذه الأماكن بأسمائها في السيرة الذاتية للكاتب يخرجها من كونها مجرد أمكنة محددة البقعة من حيث الموقع الجغرافي إلى دلالات أكبر من ذلك فنيا، فهي تصور للقاري قدر العلاقة الطيبة والحميمة التي ربطت الكاتب بهذه الشخصيات، لدرجة التزاور في المنزل، واصطحاب بعضهم بعضًا إلى منازلهم، وبهذا نثبت تضافر عناصر السرد وتعالقها، وتداخلها موضوعيا وفنيا، فالمكان هنا يخدم جانب الشخصيات، ويثبت أحداثا بعينها وقعت في تلك الأماكن التي سجلها الكاتب بقلمه.

ومن الأماكن المغلقة التي صورت جانبا مأساويا حزينا للكاتب فضاء مستشفى "المواساة" بالإسكندرية التي دخلها الشيخ المراغي – رحمه الله– وكان الكاتب يعتز به ويقدره ويحافظ على علاقته به، فحينما زاره فيها، وسرد حديثا لما دار بينهما من حوار عن حال الأزهر، ورجاله والعمل على النهوض به، ووعد الشيخ بأنه لو عاش فسيتابع المسيرة التي بدأها في سنة ١٩٢٩م، وتوفي الشيخ "المراغي" بعد هذا اللقاء بأيام قليلة.

وعلى غرار النماذج السابقة يسرد الكاتب أسماء أماكن كثيرة بأبعادها المختلفة نفسيا، وعلميا، ودينيا، واجتماعيا، وفي كُلٍ يأتي مشحونا بإيحائه الإيجابي أو السلبي.. ومن ذلك: جامعة "منتر يال" بكندا، و"الأوبرج" بشارع الهرم، ومجلس الدولة، ومجلس الأمة، وجامعة "كولومبيا" بنيويورك، والجامعة الكاثوليكية بمدينة "مانيلا" عاصمة الفلبين، والجمعية الخيرية الإسلامية ومدارسها، ومكتبه في وزارة الأوقاف، والمركز الإسلامي بواشنطن، وكلية الآداب جامعة القاهرة... وكلها أماكن أعطت السيرة الذاتية للكاتب بُعْدًا واقعيا وموضوعيا بما دار على مسرحها من أحداث، وما ذكر من أشخاص تعانقت كلها في خدمة الفكرة العامة لموضوع الكاتب، وهو تسجيل مسيرة حياته العلمية والعملية بكل دقة وصدق وأمانة.

ولكن هناك مكانا خاصا ومُهِما ورد في سيرة الكاتب لا يمكن أن نغفله عند تحليل الملمح الفني لأماكن السيرة؛ لأنه بمثابة أحد الأمكنة الرئيسة بما دار حولها من أحداث، وهو " الفيلا " التي استأجرها وسكنها واستقر بها في أخريات حياته واستوطنها هو وأسرته، والتي رمزت لأكثر من دلالة تبعا للأحداث التي سجلها الكاتب؛ منها الإيجابي فقد مثلت فترة العزلة بعد إحالة الكاتب إلى المعاش فقال: "واعتكفت في المنزل" والذي وجد فيه الراحة والسعادة حيث انقطع عن الاتصال الخارجي، وتفكر في نعم الله عليه فوجدها تتركز في الصحة، والقدرة على الفكر والكتابة، والاطمئنان في الحياة الزوجية والأسرية.

كما مثلت بُعْدًا سلبيا حيث كانت مسرحا لأحداث مأساوية جرت بسببها، مثلت التسلط والقهر من أصحاب النفوذ والأهواء في التعدي على حقوق الضعفاء، وسلبهم أقل حقوقهم إرضاء لأهوائهم ورغباتهم ومصالحهم الشخصية، وعلى الوجه الآخر ما يعاني منه أصحاب الضمير الحي، الذين رفضوا أن يستغلوا وظائفهم واتقوا الله وراقبوه فيما استؤمنوا عليه من مصالح العباد، وغالبا ما تكون نهايتهم إلى العوز والحاجة.

ومن يقرأ تحديد الكاتب لهذا المكان خاصة، وسرد عنوانه بتفاصيله وأحداثه يفهم جيدًا البعد النفسي والاجتماعي والرؤية الفكرية التي رمى إليها الكاتب من ذلك، فهو يقول في ثنايا سرده للأحداث التي وقعت له بعد خروجه للمعاش بشهور: ".. أما الحادث الثاني فكان "الفيلا" التي أسكن فيها بمصر الجديدة الآن (٣ شارع ابن بطوطة) .."[١] ثم يأخذ في سرد الأحداث التي وقعت له، والأشخاص الذين يمثلون أبطال هذه الواقعة المأساوية بأسمائهم وصفاتهم، وتصوير الإرهاب الذي مارسوه عليه، ولولا عناية الله ورعايته لأوليائه، وتسخير من يقف بجانبهم، لكان ملقى في الشارع هو وأهله، لتنعم بعض الممثلات التي كانت على علاقة بأحد أصحاب النفوذ بالفيلا التي مرت من أمامها يوما فراقتها لهدوء موقعها، وقربها من بعض الأماكن الحيوية، فقررت شراءها وسكناها وطرد من فيها عنوة.

وهو ما يثبت أن المكان في سيرة الدكتور البهي خرج من مجرد حيزه العمراني وفضائه المكاني، إلى فضاء نفسي أرحب، وصورة رمزية موحية متصلة بتجربة الكاتب والتي سجلها بصدق بجميع أبعادها ورؤاها.

٢ : الأمكنة المفتوحة:

يقصد بالمكان المفتوح أو الممتد ما ليست له حدود تحده، وتقع فيه بعض الأحداث التي يسجلها الكاتب بدلالاتها ورمزيتها المتعددة والمختلفة، ومثل هذه الأماكن وردت أيضا في السيرة الذاتية للدكتور البهي وإن كانت أقل من سابقتها، ومرجع ذلك تحري الكاتب الدقة في سرد الأحداث، ومن ثم لجأ للأماكن المحددة أو المغلقة وصورها بقلمه بما ضمنها من أحداث للقارئ لينجذب للسيرة، ويتفاعل معها.

وأول ما يقابلنا –من أماكن مفتوحة– في سيرة الكتاب ما سجله حينما سرد أحداث مرحلة استعداده لاختبار القبول في العالمية – فترة إقامته بالقاهرة – ووقتها كان يذاكر طيلة النهار حتى المغرب، ثم يأخذ قسطا من الراحة فيمشي من "الحسين" إلى "العتبة"، ثم إلى " كوبري قصر النيل"، ثم يعود منهما إلى منزله مباشرة ليخلد للفراش، وقد مثلت له هذه الأماكن أمكنة للترويح عن النفس،

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٣١.

وتجديد النشاط بعد أن ينتهي من مذاكرته التي بدأها من مطلع الفجر وذلك كل يوم، يقول: " وبعد صلاة المغرب أخرج وحدي وأمشي إلى "العتبة" فأتناول عصيرًا ثم أذهب إلى "كوبري قصر النيل" لبضع دقائق، ثم أعود عن طريق "العتبة" مرة أخرى وأتناول "الجيلاتي" وبعد ذلك أعود إلى المنزل فالفراش إلى أذان الفجر"[١]، وهذه الأماكن الممتدة كانت جديرة بالتسجيل لما وقع فيها من أحداث أثرت في مجرى حياته فيما بعد، وبما تحمل من ذكريات خاصة لمرحلة من مراحل حياته المهمة، ففي هذه المرحلة كان الكاتب يستعد لاختبار الشهادة العالمية، بعد أن ترك الانتظام بالقسم العالي، وهكذا قضى ثمانية أشهر يستعد فيها للامتحان، فكما سجل المكان المغلق الذي كان يذاكر فيه وتمثل في مسجد سيدنا "الحسين" –رضى الله عنه–، إذ به هنا يأخذ القارئ لسياحة نفسية وترويحية من خلال سرد بعد الأماكن المفتوحة بإيحائها النفسي لينقل للقارئ رصدا دقيقا لحياته في هذه المرحلة.

وشبيه بذلك ذكره لحي سيدي " أبو العباس المرسي" بالإسكندرية، وحي "باب الخلق" بالقاهرة، ومصيف الإسكندرية الذي قابل فيه الشيخ " محمد الأحمدي الظواهري" ليلة سفره إلى ألمانيا، وميناء الإسكندرية... بما حملها من شحنات نفسية مختلفة تعين على فهم الأحداث والشخصيات.

وفي ألمانيا يأخذ الكاتب في سرد الكثير من أسماء الأماكن المفتوحة من المدن، والميادين، والشوارع، ولعل أبرزها تلك الظاهرة العامة التي –رآها في السنة التي قضاها في برلين– تقع في الشوارع يوم الأحد من كل أسبوع من المتعطلين من العمل، وكانت أكثريتهم من الشباب المسرح من الجيش، الذين يمرون في الشوارع والطرقات يتلقون المساعدات فيظهرون في مظهر الذليل صاحب الحاجة –على حد وصفه–.. فالشارع والطرقات هنا بمثابة خشبة المسرح التي تسجل حدثا غريبا يقوم به أشخاص لاينبغي لهم أن يكونوا في مثل هذا المشهد، لاسيما في مثل تلك البلاد المتقدمة، التي يُبْتَعث إليها الطلاب من بلاد العالم ليحصلوا على أعلى الدرجات العلمية.. فأثر المشهد في نفس الكاتب، وكأنه هز الصورة الداخلية التي رسمها عن تلك البلاد قبل سفره إليها.

ومن الأماكن الممتدة في سيرة كاتبنا مدينة "كابري" في إيطاليا، وهي من مدن الشواطئ المعروفة بحياتها الأرستقراطية المترفة، وهو المكان الذي كان فيه الملك فاروق يوم أن وَقَّعَ إقالة الشيخ "عبد المجيد سليم" من مشيخة الأزهر، وذكره الكاتب وهو يأسى لهذه الواقعة الفجة، والتي صورها بقوله: ".. وأخيرًا إن هذه الإقالة لم تقع في تاريخ الأزهر بهذا العنف"،[٢] وذكر الكاتب لهذا المكان بهذا الوصف يرمز إلى قدر الاستهتار، وعدم تقدير العلماء، وعدم المسئولية في اتخاذ

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٣٤.

[٢] المرجع السابق ، صـ٦٠.

القرارات، ففي وسط هذا الصخب وتشتت البال بأمور اللهو والعبث وغيره، يأخذ الملك قرارًا مثل هذا، ويرسل به من الخارج، وبالتالي فإن ذكر هذا المكان تحديدًا في هذا السياق له دلالات عميقة، تختزل في طياتها معاني كثيرة مصورة لما كان عليه الوضع السياسي في مصر، وما كان عليه حال الأزهر في إحدى فتراته من تلاعب الحكام به، وبالتالي عدم استقراره...

ومن الأماكن الممتدة التي تحمل بُعْدًا إيجابيا في سيرة الكاتب ما ذكره عن أوقاف "زينب هانم"، وكذلك أراضي وعمارات الأوقاف في "دير الملاك"، والأرض الواسعة التي اختيرت موقعا لتقام عليها مباني الجامعة في مدينة نصر.. وكلها أماكن تحمل دلالات متعددة لما قام به من إنجازات لصالح أبناء الأزهر وخريجيه، والحفاظ على مقدراته، والعمل على نهضته، كما أن فيه إشارة صريحة لما يملكه الأزهر من وقف كثير خيره، غزير نفعه، لو أحسنا توظيفه لنهض الأزهر، ولكفي أبناءه المؤنة دون حاجة لعون من الداخل أو الخارج، وظل خريجه عزيزًا مقدرًا.

وهكذا تعددت الأماكن في سيرة الكاتب، وتنوعت دلالاتها إيجابا وسلبا، كما أنها تعانقت مع بقية ملامح السرد الأخرى من الأحداث، والأشخاص، والأزمنة، فعاونت على نجاح التجربة، وأخرجت السيرة واقعية مؤثرة لا يشك القارئ في حقيقتها، كما لا يخفى ما أدته من وظائف متعددة اجتماعية، ونفسية، ودينية، مع ما صورت به أفكار وتوجهات الشخصيات من خلال تصرفاتها في ظلال هذه الأمكنة..

خامسا : اللغة والأسلوب :

يعد المتن الحكائي للسيرة الذاتية –المُكَوَّن من اللغة والأسلوب–، من العناصر الأساسية والمهمة التي يقوم عليها بناؤها الفني، والأداة الفاعلة التي يستخدمها السارد لسرد الأحداث، وعرض الشخصيات، ووصف البيئة بعنصريها الزمان والمكان، فمن خلالهما يقدم الكاتب أفكاره، ويعبر عن أحاسيسه ورؤاه، فيسجل أحداث حياته عبر مراحلها المختلفة.

فاللغة مكون رئيس في إبداع النص القصصي أو السردي، وركيزة أساسية تسهم في تشكيله تشكيلا فنيا مع بقية عناصره المتعددة، فالسارد لا يستطيع أن يقدم أفكاره ومعانيه للقارئ إلا من خلالها " فباللغة تنطق الشخصيات، وتتكشف الأحداث، وتتضح البيئة، ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة التي يعبر عنها الكاتب"،[1] كما أن الأسلوب يتشكل منها وَيُكَوِّن الجنس الأدبي.

ويذهب بعض النقاد إلى تفرد لغة السرد عن غيرها، فيرى أن " اللغة في عملية القص والحكي والعناية بها من الأهمية بمكان.. ذلك أن اللغة لابد من أن تحتفظ بخصائصها الثلاث من

---

[1] بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية، الدكتور/عبد الفتاح محمد عثمان، مكتبة الشباب القاهرة، عام ١٩٨٢م، صـ ١٩٩.

حيث إنها تعبيرية، ووصفية، واقتضائية (اتصالية)، كما أنها لابد أن تتجاوز اللغة المعيارية لتكون بالغة باذخة ذات قدرة إشارية".[١]

والحقيقة أن لغة الدكتور البَهِيّ في سيرته تميزت بعدة أمور، فجاءت سهلة واضحة، مباشرة لا غموض فيها ولا تعقيد، دقيقة في تسجيل الأحداث، وعرض الشخصيات، أقرب لاستعمال الحقيقة من الخيال- وإن لم تخلُ منه مطلقا-، كما تميزت بعنصر التشويق المتولد من تطور الأحداث ونموها، والحوار الواقع بين الشخصيات الذي يعبر عن مستوى الشخصية بدقة، وفي السطور التالية أحاول الوقوف على أبرز ملامح السرد اللغوية، والأسلوبية في السيرة الذاتية لكاتبنا:

أولى سمات سرد اللغة القصصية عند كاتبنا التي ينبغي البدأ بها، - وإن كنت أشرت إلي شيء منها سلفا عند الحديث عن الشخصية الرئيسة- توظيف الكاتب لضمير المتكلم للتعبير عن ذاته دون غيره من الضمائر، ويظهر ذلك جليا بداية من العنوان أولا، في لفظة "حياتي"، ثم في التعبير عن ذاته في أحداث السيرة من بدايتها إلى نهايتها ثانيا، وهذا النمط له دلالاته المهمة في سيرة الكاتب، فهو الشخصية المركزية التي تتحدث وتسرد، وتبعا لذلك فإن الأحداث والشخصيات تدور حولها، " لأن ضمير المتكلم هو ضمير للسرد المناجاتي، السرد القائم على ما أطلق عليه المنولوج الداخلي الذي يستطيع التوغل إلى أعماق النفس البشرية فيعريها بصدق، ويكشف عن نواياها بحق، ويقدمها للقارئ كما هي، لا كما ينبغي أن تكون"،[٢] فاستخدم السارد ضمير التكلم (الياء المتصلة) للحديث عن شخصيته في "حياتي"، والذي اتكأ عليه بصوره النحوية المختلفة ضمير التكلم المتصل كـ"ياء المتكلم"، أو "تاء الفاعل" المضمومة للمتكلم، والضمير المنفصل "أنا" وهذا في سيرته كلها.

فنجد الكاتب يعبر عن شخصيته في أول سطور السيرة بقوله: " أتممتُ حفظ القرآن الكريم وأنا في سن العاشرة .. وأرسلني والدي إلى دسوق.. وكنتُ في صحبة ابن خالي". [٣] وبعدها بسطور يقول: " وفي سن الثانية عشرة انتسبتُ إلى "المعهد البرهامي"، ومكثتُ بدسوق ثلاث سنوات، سافرتُ بعدها إلى طنطا..".

فهذه هي السمة الغالبة على سرد الكاتب الذاتي لأحداث تجربته في التعبير عن نفسه من بدايتها إلى نهايتها، فلم يستخدم ضمير الغائب، أو يظهر اسمه الحقيقي، كما فعل بعض الكتاب

---

[١] بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة، الدكتور/هاشم ميرغني، شركة مطابع السودان، الخرطوم، ط١، عام ٢٠٠٨م، صـ ٢٤١.

[٢] في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، صـ ١٨٤.

[٣] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٢٧.

في سيرهم الذاتية، بل ظل الكاتب متمسكا بهذا الأسلوب الفني حتى آخر سطور سيرته، وفيها يقول: "وتجربتي من الحياة أن الباقي فعلا للإنسان على مدى عمره الطويل، هو إيمانه بالله، ووقوفه عنده.."[١].

وفي استخدام الكاتب لضمير التكلم في التعبير عن ذاته بوصفة الشخصية الرئيسة للسيرة ما يجعلنا نتعايش مع تجربته الإنسانية ونتفاعل مع واقعيتها، بل ونصدقه إذ نستشعر انبثاقها من حنايا نفسه، وارتباطها الوثيق بالأحداث المتطورة، كما تثبت حضور الراوي (السارد) وهو ما يعطيها صفة الفنية.

والسمة الثانية للغة القصصية للكاتب الاتكاء على صيغة الفعل الماضي في أغلب أحداثها، وذلك لأن الكاتب وظف ما أطلق عليه أسلوب الاسترجاع الزمني القائم على سرد الأحداث من الماضي إلى الحاضر وقت كتابة السيرة، – وهو الأنسب للسيرة الذاتية– كما وضحت في تحليل الزمن، فكان من الملائم للمتن السيري أن يكثر الكاتب من استخدام الصيغ الماضية من الأفعال، وقلما استخدم أفعال الحاضر أو المستقبل إلا إذا استدعى السياق أو سرد الحدث ذلك، فإذا استخدم الفعل المضارع أدخل عليه أحد الحروف التي تقلب معناه إلى المضي كقوله لم يكن، لم أعلم، إلا ما ندر عن ذلك استنادًا على سياق الكلام. وفي كل ما ذُكِر من نصوص في متن البحث ما يؤيد ذلك.

كما جاءت ألفاظ الكاتب متشحة بالفصاحة مع مراعاة السهولة والوضوح، وموافقة ثقافة المجتمع والجو العام السائد فيه، فانتهج الكاتب في لغته ما يمكن أن نطلق عليه المنهج الوسط في لغة الكتابة والتأليف، فلم تحفل سيرته بالألفاظ الغامضة إلا ما ندر –كما سنذكر– وهو شيء نسبي يرجع إلى ثقافة القاريء، كما أنه لم ينحدر إلى اللغة العامية التي يستخدمها بعض الكتاب، والتي تشيع على ألسنة العوام إلا ما ندر أيضا، عند تعمده فعل ذلك لينقل للقاريء حوارًا على ألسنة بعض الشخصيات، وأرى أن استقامة لغة الكاتب وبلاغتها ترجع لحفظه للقرآن الكريم في سن مبكرة، وثقافته اللغوية، وبنائه العلمي التراثي في الأزهر، وتخصصه في البلاغة والأدب، وتمرسه الكتابة والتأليف.

فمن الألفاظ التي يشوبها شيء من الغموض على القارئ العادي –فيما أرى– استخدامه للفظة " افتئات" بمعنى (تعدي، وسلب، واستبداد) في قوله: " كما روعي أيضا التخلص من ظاهرة نشأت عن افتئات على حقوق المجدين من شباب طلاب الأزهر"[٢]، ومثلها لفظة "مساوقا" بمعنى (مشابها أو مجاريا) في قوله: " وأي شيء سيعرض على بعد الآن سيكون مساوقا لما سبق أن رفضته"،[٣] وأرى أن هذه اللفظة خصوصا من الألفاظ التي غلبت على لغة كاتبنا وتميز بها

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ١٤٥.

[٢] المرجع السابق ، صـ١٢٣.

[٣] المرجع السابق ، صـ١٢٥.

معجمه اللغوي، وذلك لاستخدامه لها في سيرته أولا، واستخدمه لها أكثر من مرة في إحدى مؤلفاته الأخرى ككتاب "منهج القرآن في تطوير المجتمع"، وفيه يقول: " فالمرحلة الأولى في تطويره يساوقها التنديد في آيات القرآن بالماضي في المجتمع السابق، والمرحلة الثانية في هذا التطور يساوقها النهي عن هذا الماضي.."[١]، ومثل هذه الألفاظ –التي تخللها شيء من الغموض– جاءت قليلة، كما أن السياق العام الذي وضعت فيه يعين القاريء على فهمها، واستيعاب مقصود الكاتب منها.

الألفاظ العامية:

السمة العامة والغالبة على ألفاظ المتن الحكائي للسيرة الذاتية للكاتب هي اللغة الفصحى بوصفها أداة الفن، ووسيلة التفاهم في لغة الإبداع والكتابة، ومع ذلك فلم تخلُ سيرة الكاتب من استخدام بعض الألفاظ العامية، التي أتت تعبيرًا عن حوار معين على لسان بعض الأشخاص ليصبغ سيرته بالواقعية خاصة في لغة الحوار، ومن ذلك لفظة "لا تَزْعَل" المشهورة في لغة التخاطب بدلا من "لا تغضب"، التي أوردها على لسان الشيخ المراغي –رحمه الله– في حوار دار بينهما في قوله: ".. وعندما دخلت عليه مكتبه بادرني بقوله: لا تزعل فقد فوتنا عليك الترقية إلى الدرجة الرابعة.."[٢]، كما وردت هذه الكلمة في ألفاظ السيرة مرة أخرى في سياق آخر، ذكرها الكاتب في سياق وصف أسلوب بعض الشخصيات المتعنتة، التي حاولت تهديده لإخراجه من مسكنه عنوة، يقول: " ولما لم أستجب لإغرائه أخذ يهدد، ويقول: " لا تزعل إذن عندما يأتي خمسة أو ستة من الصعايدة حاملين عروق الخشب ويقتحمون باب الفيلا ليزيلوا السقف الداخلي للسلم الخاص بها، ويصعدوا على السطح"[٣]، فكما نرى تعمد الكاتب لنقل هذا الحوار بألفاظه على لسان قائله، فأضفى على سيرته صفة الواقعية، كما أحدث شيئا من التفاعل النفسي من القاريء، وكذلك في موقف آخر للشخصية نفسها يذكر الكاتب على لسانه قوله: " أنا بَقُوْل كده.. إنت عاقل".[٤] ومثل هذه الألفاظ وردت قليلة جدا في السيرة الذاتية لكاتبنا، ولولا أن الموقف والشخصية ولغة الحوار هي التي فرضت على الكاتب استخدامها، لتصوير الحديث كما هو ما كتبها، كما أرى أن مبدأ الصدق الذي أخذ الكاتب به نفسه، وصفة الواقعية، وطريقة العرض، ومهارة السارد ارتقت بهذه الألفاظ إلى لغة الفن القصصي المقبول عند النقاد.

---

[١] منهج القرآن في تطوير المجتمع، الدكتور محمد البهي، مكتبة وهبة، ط الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، صـ٦.
[٢] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ٤٩.
[٣] المرجع السابق ، صـ١٣٤.
[٤] المرجع السابق ، صـ١٣٤.

معجم المصطلحات العصرية في سيرة الكاتب:

ظهر مما سبق من نماذج مختلفة في ثنايا البحث أن الغالب في ألفاظ السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ أنها تمتاز بالألفاظ الفصيحة الواضحة والسهلة، وملاءمتها للموقف أو الحدث، كما تتسم بالدقة في التعبير عن الشخصية والبيئة، وفي الوقت نفسه فإن الكاتب لجأ لاستخدم بعض الألفاظ العصرية، أو المستحدثة التي فرضتها طبيعة العصر الحديث، والبيئة التي يحيا فيها الكاتب في لغة الحوار لمواكبة الحياة والتعبير عن أحداثها بصورتها الواقعية، وهو ما يثبت أن الكاتب ابن بيئته، ووليد عصره، من أحداثه يتشكل فكره ، ومن ثقافته وعلومه يكتسب معارفه، ومن ثَمَّ يتكون معجمه اللغوي والأسلوبي.

فمن نماذج ذلك لفظة "الجيلاتي"، وقد استخدمها الكاتب في سرده لأحداث مرحلة معينة من حياته، وهي فترة مذاكرته استعدادًا لدخول امتحان العالمية بالأزهر، فكان يذاكر طوال النهار في المسجد الحُسيني، ثم يخرج بعد صلاة المغرب ليتمشى وحده ترويحا لنفسه إلى " كوبري قصر النيل"، يقول: ".. ثم أعود عن طريق "العتبة" مرة أخرى، وأتناول "الجيلاتي"، وبعد ذلك أعود إلى المنزل"[١]. ونرى أن اللفظة أعطت المتن القصصي للسيرة صفة الواقعية في سرد الحديث، وصورت الكاتب في شخصية بسيطة عادية، طبيعية في جدها ومرحها.

ومن ذلك لفظة "السفرجية"، والتي وردت في ثنايا سرده لأحداث رحلته إلى ألمانيا على السفينة "فيكتوريا"، وحواره مع بعض الأشخاص الذين تعرف عليهم أثناء سفره، يقول: ".. فقد لاحظ علينا بالأمس أننا لم نكلم أحدا من "السفرجية" وأننا تركنا المائدة دون تناول أي شيء من الطعام، فتقدم نحونا.."[٢] وكلمة " التاكسي" في قوله: " وتلقانا أحد الحمالين وتسلم متاعنا وقادنا إلى سيارة التاكسي.."[٣]، ولفظة " البنسيون" في قوله: "..حتى وصلنا إلى الدور الذي يفترض فيه البنسيون.."[٤]، ولفظة "القنصلية" في قوله: " ومنذ هذه اللحظة كان محمود يرافقنا في كل شيء: في البحث عن "بنسيون".. وفي الذهاب إلى مكتب البعثات وإلى السفارة والقنصلية"،[٥] ولفظة "أرستقراطية" حينما كان يسرد أحداث إقالة الملك فاروق للشيخ عبد المجيد سليم بينما كان الملك متواجدًا في مدينة "كابري بإيطاليا"، يقول:"وهي من مدن الشواطئ المعروفة بحياتها الأرستقراطية

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٣٨.

[٢] المرجع السابق نفسه.

[٣] المرجع السابق ، صـ٣٩.

[٤] المرجع السابق نفسه.

[٥] المرجع السابق ، صـ٤٠.

المترفة"،[١] ومن أمثلة ذلك التعبير بلفظ " مشروبات غازية " والتي أوردها وهو يسرد بعض مواقفه في تصديه للفساد، ولبعض صور الإنفاق من أموال المسلمين دون رقابة أو خشية في وزارة الأوقاف، يقول: " وقد لفت نظري مرة: أن رأيت المراقب المالي بالوزارة موافقا على صرف مبلغ ماية[٢] وأربعة عشر جنيها في الشهر الواحد، ثمنا لمشروبات غازية لمكتب سكرتير المجلس...".[٣] وأرى أن مثل هذه الألفاظ صبغت لغة السيرة بصبغة الواقعية، وصورت لنا جانبا من حياة الكاتب تمثل فيه الصدق والبوح، أو الاعتراف الفطري الذي يعلي من قيمة سيرته.

ومن أظهر ما اتسمت به الألفاظ في السيرة الذاتية للكاتب، ملاءمتها للجو العام للموضوع وخدمة الفكرة، فنجد المعجم السردي للأحداث معجمًا مأساويًّا ناتجًا عن الجو النفسي، يوحي بقتامة الصورة لشدة القهر النفسي، وكثرة الفساد والعبث المنتشر مادام الكاتب يقوم بسرد أحداث مرحلة معينة، أو سرد مواقف أشخاص تعرض بسببهم لأذى أو اضطهاد، وفي الوقت نفسه نجد معجما يشيع فيه البهجة والفرح إن كانت الأحداث تتطلب ذلك، وإن كان الغالب على سيرة كاتبنا ما يمكن أن أطلق عليه معجم القيم النبيلة، أو المبدأ الذي أخذه الكاتب على نفسه، وهو الجد والعمل، والسعي لخدمة دين الله، والارتقاء بأعرق المؤسسات العلمية والدينية التي شرف بالانتساب إليها، واختارها رمزا لحياته التي لم يَرَ نفسه يوما دونها أو في غيرها.

وعموما فقد كانت لغة الكاتب مع فصاحتها لغة سهلة بسيطة واقعية، مناسبة للأحداث، يفهمها كل من يقرأها.

الأسلوب: عُرِّف الأسلوب قديمًا بأنَّه " المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه"،[٤] وفي النقد الحديث بأنه " طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير"،[٥] فالأسلوب هو الجانب المشرق المعبر عن المعاني، الدال على المشاعر والأحاسيس التي تجيش في نفس الكاتب وتكمن بداخله، فهو الناحية المحسوسة أو الملموسة للنص الأدبي، والتي نستطيع من خلالها الحكم على التجربة وتلمس المناحي الفنية والجمالية فيها، وقد نوع الكاتب في سرد أساليبه المعبرة عن الأحداث والأشخاص والأمكنة والأزمنة في سيرته الذاتية، فأخذت التشكلات الآتية:

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي، صـ٥٩.

[٢] وردت كلمة مائة في كتاب "حياتي في رحاب الأزهر.." بالياء بدلا من الهمزة –كما أثبتها– في أكثر من موضع، وقد بحثت عن وجه لها فلم أجد مسوغا لغويا لكتابتها بهذه الصورة، لذا أرى أنها كتبت خطأ من الناسخ، ويقوي ذلك أن الكتاب طبع بعد وفاة مؤلفه.

[٣] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ١١٨.

[٤] مقدمة ابن خلدون، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، مج ٣،جـ١، صـ ١١٥٩.

[٥] الأسلوب : أحمد الشايب، ط مكتبة النهضة المصرية، ط الثامنة ١٩٨٨م، صـ٤٤ .

أ : **أسلوب السرد الخبري**: ويأتي في السيرة الذاتية لكاتبنا على صور.

١: أسلوب السرد الخبري التقريري الخالي من المؤكدات: هو الغالب على سرد أحداث ومراحل سيرته، فهذا الأسلوب هو الأنسب لكتابة السيرة الذاتية بوصفها فنا يهدف إلى الحقائق، وتسجيل أحداث الحياة كما جرت.

٢: أسلوب السرد الخبري المؤكد: لا يمنع كون الكاتب اعتمد على الأسلوب الخبري التقريري، أن يأتي أسلوبه مؤكدا في سرد بعض المواقف، أو تصوير بعض أطوار حياته، فربما تطلب الموقف من الكاتب أن يصوغ تجربته في أسلوب خبري مؤكد بأحد المؤكدات لداع فني أو نفسي، ونعني بها الأدوات التي تفيد تأكيد الحكم –لا تأكيد الألفاظ الداخل في علم النحو– مثل: (قد، وإن، والقسم، والجملة الاسمية، فاسمية الجملة تفيد بأصل الوضع ثبوت الحكم).

فمن صور الأسلوب الخبري المؤكد بعدة مؤكدات: قوله حكاية عن لقاء شيخ الأزهر – الشيخ "محمد الأحمدي الظواهري"– قبل سفره إلى ألمانيا: " فقد ظن أنَّ لقاءنا لقضاء حاجة عنده" ونلحظ أن الجملة اشتملت على قد، وأن، والضمير المنفصل، واللام المتصلة بالخبر. وبعدها يقول: " فَلمَّا أُفْهِمَ أنَّ الزيارة لقصد التحية فقط .. هدأت نفسه"، ويبدو أن الكاتب تفاجأ بموقف الشيخ على غير ما كان متوقعا منه من الحفاوة والتهنئة، لأن العرف يقتضي ذلك في مثل تلك المواقف، لذا فقد سرد الحدث بهذه الصورة التي تؤكد المعني في نفس القارئ، ولا تدع له شيئا من الاستغراب أو الشك، مع ما أحدثته من التفاعل النفسي.

ومن استخدام الكاتب للأسلوب الخبري المؤكد بـ " إنَّ" ، ما حكاه عن ثناء الشيخ القطيشي –مدرس البلاغة له في المرحلة الثانوية– أمام شيخ المعهد قوله: " إنَّ فلانًا هذا أعلم من الشيخ "أمين سرور"، وكان يقصدني.."،[١] ومن تأكيد الكاتب لِجُمَلِهِ استخدام " قد" –وهو الأكثر شيوعا– قوله: " وقد اخترتُ وأنا في الوزارة عضوين فقط .."[٢].

وربما أتى الكاتب بجمله مؤكدة بأَنَّ المتصلة بياء المتكلم (ضمير الذات) تعبيرًا عن الحدث، وتصويرا للحالة النفسية التي تملكته في تلك المرحلة من مراحل عمره، ومن ذلك ما ذكره عن خصومه من مروجي الإشاعات ضده لإعاقة مسيرة عطائه للأزهر يقول: " وكان من الإشاعات: **أَنِّي** شديد.. و**أَنِّي** أضع العقبات في طريق الترقية ونقل الأساتذة من الكادر العام إلى الكادر الجامعي، و**أَنِّي** أشق على طلبة الكليات العلمية والعملية بزيادة سنة إعدادية في كلياتهم.. كما روجت إشاعة أخرى غريبة عندما أخذت لنفسي أجازة بعد الوزارة فحواها: **أَنِّي** لم أذهب إلى

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٣١.

[٢] المرجع السابق ، صـ١١٩.

إدارة الجامعة.. خوفا من الطلاب وغضبهم، ويعلم الله **أَنِّي** كنت قد قدمت استقالتي.."،[١] والأسلوب على ما فيه من تأكيد المعني فإنه يوحي بشيء من الحسرة، كما يصور للقارئ قدر العقبات والشدائد التي واجهها الكاتب، والمعاناة التي عاش فيها لا لشيء سوى إخلاصه لمبدئه، وإيمانه بفكرة ضرورة الإصلاح ومحاولة التغيير.

٣: أسلوب القصر :

من صور استخدام الكاتب للأسلوب الخبري اعتماده في سرد أحداثه وأشخاصه وتصوير البيئة على أسلوب القصر، وإنما يلجأ إليه بقصد تقوية المعنى، وتمكينه في نفس المتلقي لأن "جملة القصر في قوة جملتين، فيقصد به تمكين الكلام وتقريره في الذهن لدفع ما فيه إنكار وشك".[٢] ولهذا الأسلوب طرق متعددة يأتي عليها؛ منها النفي والاستثناء، وإنما، وتقديم ما حقه التأخير.. وقد ظهر هذا كله في السيرة الذاتية لكاتبنا.

فمن نماذجه باستخدام النفي والاستثناء قوله وهو يصور صعوبة امتحان العالمية، والقيود الشديدة التي وضعتها مشيخة الأزهر لاجتيازه بحيث " لا ينجح فيه إلا من هو فوق المتوسط"[٣]، وقوله متحدثا عن المنهج الذي اختطه لنفسه منذ تعيينه : ".. لا أحضر للمحاضرة إلا إذ كنت متقنا تماما للموضوع.."،[٤] وقوله وهو يسرد أحداث خروجه من وزارة الأوقاف ومحاولة تفسير ذلك : " ما أخرجت إلا استجابة لأصحاب الشورى في تطبيق الماركسية.." [٥]

ومن نماذج أسلوب القصر باستخدام " إنَّما" قوله وهو يسجل إعجابه ببعض الشخصيات التي تعامل معها: ".. وإنَّما يملك الخلق الكريم، والرغبة الشديدة في تعليم الشيخ.." [٦]، وقوله في موضع آخر: "وإنَّما الحياة الألمانية كانت تسير في غاية النظام"[٧]، وقوله في ثنايا سرده لحوار مأساوي دار بينه وبين الشيخ "المراغي" – شيخ الأزهر رحمه الله– على إثر مؤتمر عقد لكبار الشيوخ لبحث إصلاح الأزهر وبرامجه فَعَلَا ضجيج المناقشة، مما دعا الشيخ إلى فض الاجتماع،

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، د/ محمد البهي ، صـ١٢٠.

[٢] بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تح: عبد المتعال الصعيدي، ط صبيح، القاهرة، ط الثانية (د– ت) جـ٢، صـ ٣.

[٣] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٣٢.

[٤] المرجع السابق ، صـ٤٧.

[٥] المرجع السابق ، صـ٨٢.

[٦] المرجع السابق، صـ٣٠.

[٧] المرجع السابق ، صـ٤٤.

واستنكاره ما حدث، واستبعاده أن يُرجى من هؤلاء إصلاح الأزهر، أو العمل على رفعة شأنه فقال: ".. إنِّي لا أشك، وإنَّما أنا متأكد من ذلك".[١]

ومن أنماط توظيف الكاتب للأسلوب الخبري التقريري في سرد الأحداث والوقائع، أن يأتي به منوعًا بين الخبر والإنشاء ما دام تصوير الحدث أو الحوار يتطلب ذلك، ومن نماذجه سرد الكاتب للقاء مهم بينه وبين الشيخ "مصطفى عبد الرازق" قبل سفره إلى ألمانيا، وقص الكاتب الحوار الذي دار بينهما بعد أن توجه إليه في الموعد والمكان المحددين، يقول: وهناك وَجَّه إليَّ سؤالين: " السؤال الأول: أيَّةُ مادة أختار التخصص فيها في ألمانيا، لو وقع على الاختيار: التاريخ، أم الفلسفة؟ فلما أعلنت اختيار الفلسفة سألني بالتالي: لماذا؟ فأجبته بأن رسالة التخصص التي تقدمت بها هي "أثر الفكر الإغريقي في الأدب العربي" فقال: يتعين الآن أن يكون موضوع تخصصك هو: الفلسفة. والسؤال الثاني: ماذا تصنع لو كان هناك اختلاط في المحاضرات؟ فأجبته بأنه يجب أن تكون متابعة الأستاذ في المحاضرة هو الهدف، وأي شيء سوى ذلك يجب أن ينحى جانبا من تفكير الإنسان" .[٢]

والنص على ما فيه من إثبات لتنوع الأسلوب السردي بين الخبر والإنشاء، فإنه يسجل عدة ملامح أسلوبية أخرى – غلبت على السيرة الذاتية للكاتب– كالأسلوب الروائي الذي يظهر في تصوير الشخصيات والأماكن وما وقع فيها، وأسلوب الحوار: باستخدام الأفعال قال، قلت، والتحليل النفسي أو التفسيري كما سبق في عرض بعض الشخصيات، أو محاولة تبرير بعض التصرفات الواقعة من خلال التعليق عليها.

ب : أسلوب السرد الإنشائي:

كما استعان الدكتور البَهِيّ بالأسلوب الخبري بأنماطه المختلفة؛ وظف الأسلوب الإنشائي بصوره المتعددة التي تتمثل في: الاستفهام، والدعاء، والأمر، والنهي، والمدح في التعبير عن معانيه، وحكي الأحداث التي مر بها، وترجمته عن الشخصيات والبيئة بعنصريها، فَسَرَدَها في قوالب إنشائية أسلوبيا لما يفيده هذا الأسلوب من إحداث الإثارة، والتلهف على سبر أغوار المعنى، كما يأتي نتيجة طبيعية لتكثيف الشحنات الانفعالية المتفاوتة والمتغايرة، ومن هذه الأساليب:

١ : **أسلوب الاستفهام** : وهو من الأساليب التي وردت بكثرة في سيرة الكاتب، لا سيما في الحوار، أو تصوير حدث، أو تفسير لبعض الأمور، كما أتي بصوره البلاغية المتنوعة الحقيقية والمجازية، ومن ذلك الاستفهام الذي يوحي بالتعجب المصور لحالته النفسية أول أيامه بالأزهر كما في قوله: "

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٥١.

[٢] المرجع السابق ، صـ٣٦.

ولا أدري لماذا لم أتسلم جرايتي؟!"،[١] ومثله قوله مستنكرًا لما تم إلغاؤه من قرارات –بعد خروجه من وزارة الأوقاف– بعد أن سعى جاهدا لعملها بوضع الميزانيات المخصصة: " ما هو السبب في إلغاء دار القرآن، وهدم مسجد "أولاد عنان"؟، ليقام مسجد الفتح بدلا منهما بعد اعتماد مليون وربع المليون من الجنيهات من بقايا حسابات الأوقاف في عشر سنوات مضت! "،[٢] وقوله بعد ذلك: " وما هو السبب في إلغاء مساكن الأئمة..؟!، ما هو السبب في إلغاء مشروع ضم الأئمة إلى مدرسي الأزهر في كادر واحد..؟!" [٣]، ومن صور الاستفهام التي سجلت حوارا قصصيا لمجموعة أشخاص ما سرده الكاتب من خبر الوقيعة بينه وبين الشيخ "عبد المجيد اللبان" على إثر إحدى المقالات التي كتبها بمجلة الأزهر فسأله الدكتور البهي قائلا "هل قرأت فضيلتكم المقال؟.. واستدعى الشيخ وسأله: هل قرأت المقال؟ فأجاب بالنفي. ثم سأله مرة أخرى: كيف عرفت أن الدكتور "البهي" خرج عن الخط الإسلامي فيما كتب؟".

وتعد نماذج الاستفهام من أكثر صور أسلوب الإنشاء توظيفا في النص السردي للسيرة الذاتية للدكتور البهي.

٢ : **الدعاء:** الحقيقة أن أسلوب الدعاء من الأساليب التي شاعت أيضا في السيرة الذاتية لكاتبنا، لا سيما عند ذكره لإحدى الشخصيات التي تعامل معها وقد سبقته إلى جوار الله –عزوجل– وقت كتابته للسيرة، ومن ثم فقد أخذ أسلوب الدعاء في السيرة الذاتية للدكتور البَهِيّ بُعدًا أخلاقيا، يعبر عن وفاء صاحب السيرة وإخلاصه لمن عاملهم، فمن ذلك قوله: "وجزى الله الشيخ "المشد" كل خير فقد تحمل أعباء السكن والإنفاق على المعيشة لنا..."،[٤] وقوله بعدها: ".. عين الشيخ "أمين سرور" –عليه رحمة الله– مدرسا للبلاغة للفصل الذي أنا فيه"[٥] ..إلخ ما ورد من نصوص.

٣ : **أسلوب الأمر:** هذا الأسلوب من الأساليب التي وردت في ثنايا سرد الكاتب لأحداث حياته بقلة، وأرى أن سبب ذلك أن فن السيرة مبني على الحكي، أي قص الأخبار من الماضي؛ ولذا فإن صيغة الأمر لا تأتي إلا حينما يسرد الكاتب حوارًا، أو يحتاج إليه في تصوير طلب ما، من ذلك قوله وهو يقص ما طلبه الشيخ المراغي منه: ".. اكتب لي مذكرة بما تراه في إصلاح الأزهر، وأت بها بعد أسبوعين..". [٦]

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي ، صـ٣٢.
[٢] المرجع السابق ، صـ٨٢.
[٣] المرجع السابق، صـ٨٣.
[٤] المرجع السابق ، صـ٢٩.
[٥] المرجع السابق ، صـ٢٩.
[٦] المرجع السابق ، صـ٥١.

٤ : **أسلوب المدح:** وظف الكاتب هذه السمة الأسلوبية عند وصفه لبعض الشخصيات، أوتحليل بعض طباعها، فمن نماذجه قوله في الثناء على بعض زملائه في مرحلة التعليم الابتدائي: " واتصلت هناك بالشيخ "عبد الله المشد "، وكان نِعْمَ الزميل".[١]

مظاهر الأساليب البديعية:

لم تخلُ السيرة الذاتية للكاتب من بعض الصور البديعية، التي جاءت سمحة طيعة، عفو الخاطر غير متكلفة، خادمة للمعنى، مصورة للفكرة، ومن صورها:

أ : **الطبـــاق** : فمن نماذجه ما جاء بين كلمتي (بالإيجاب، والسلب) في قوله : " ثم تردد في نفسي أمر سيكون له تأثير بالإيجاب أو بالسلب على مستقبلي.."،[٢] ومنه ما جاء بين كلمتي (الهدم، والبناء) في قوله: "وكان من الواضح أن يخلفني في الوزارة من يستطيع الهدم أكثر مما يستطيع البناء"،[٣] ومنه ما جاء بين لفظتي (كفيف، ومبصر) في قوله: " فقد أثبت البحث في سجلات هؤلاء الطلاب أنهم كانوا "مبصرين" طوال الدراسة الثانوية في الأزهر، ثم عند دخولهم امتحان الشهادة الثانوية تقدموا إليها على أنهم من "كفيفي" البصر بشهادة طبية مكذوبة... والامتحانات الشفوية في الأزهر يتساهل فيها عادة وتسخو فيها اللجان، ومن هنا يكون تفوق الكفيف عن المبصر في الامتحان النهائي لا يدل على أنه تفوق في واقع الأمر".[٤]

ومن صور طباق الإيجاب والسلب ما جاء في قوله: ".. أني غالبا لا أراجع المادة أكثر من مرة واحدة، ولكن تطول مراجعتي لموضوعاتها"،[٥] وأثر الطباق في هذه النماذج كلها أنه يعمل على إبرز المعنى وتوضيحه بالتضاد، ويساعد على ترسيخ الفكرة المتغياة في نفس القارئ.

ب : **المقـابلـــة** : إحدى صور البديع التي وظفها الكاتب في سرد أحداث سيرته، فمن نماذجها ما في قوله: " ثم تردد في نفسي أمر.. وهو أني أترك النظام في دراسة الأربع سنوات بالقسم العالي، وأتقدم مباشرة للامتحان في الشهادة العالمية"،[٦] فقابل بين (أترك وأتقدم)، و(انتظام الدراسة، والامتحان)، و(القسم العالي، والشهادة العالمية). ومن صورها قوله: " وبأسلوبي في التدريس عرفت بين الطلاب بالأهلية والصلاحية للمعرفة، وبأسلوبي في الامتحان عرفت بالشدة عندهم"،[٧] فقابل

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي ، صـ٢٩.

[٢] المرجع السابق ، صـ٣٢.

[٣] المرجع السابق ، صـ١٢١.

[٤] المرجع السابق ، صـ١٢٣.

[٥] المرجع السابق ، صـ٣٣.

[٦] المرجع السابق ، صـ٣٢.

[٧] المرجع السابق ، صـ٤٧.

بين أسلوبه في التدريس والذي عرف فيه بالقدرة على التدريس واللين والأهلية، وأسلوبه في الامتحان الذي عُرف فيه بالشدة، كما وردت المقابلة البديعية في ثنايا سرده للتجاوزات التي وقف عليها فترة توليه وزارة الأوقاف، وذلك في قوله: " والعجيب أن كبار الموظفين في الحسابات.. كانوا يسلكون مسلكين متناقضين؛ فهم بينما ينكرون على الوزارة بعض التصرفات المالية والإدارية، إذا بهم أنفسهم يجيزون للمجلس ما أنكروه بالأمس.."، فقابل بين ما ينكرونه على الوزارة، وما يجيزونه لأنفسهم.. وكما نرى أن المقابلة في هذه النصوص –وغيرها– جاءت طيعة مناسبة للحدث لا تكلف فيها، بل خدمت المعنى وساعدت على إيضاحه وتوكيده في النفس عن طريق التضاد.

ج : الاقتباس والتضمين: لم يستعن الكاتب في أساليبه بعنصر الاقتباس كثيرًا، فلم أقف في سيرته على توظيف للنص الديني إلا نادرًا، ومن نماذجه ما ورد في ثنايا سرده لإحدى وقائع الاختلاس من أموال المسلمين التي وقف عليها فترة توليه وزارة الأوقاف، في قوله:".. فقدمته الإدارة القانونية بناء على طلبي إلى النيابة العامة في ثمان وأربعين قضية: عصبها التزوير، والاختلاس، وأكل أموال المسلمين بالباطل.."(١)، والأسلوب مقتبس من قوله تَعَالَىٰ:﴿ ...وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، [سورة النساء: ١٦١].

ولم يستعن الكاتب بأسلوب التضمين، فلم أقف علي معان في سياق حديثه لأبيات شعرية، أو أمثال شعبية تراثية، ولعل مرجع ذلك تعمد الكاتب إظهار الحقيقة للقارئ في خط اعترافي واضح، دون محاولة شغله أو صرفه عن ذلك بمحاولة تأويل النصوص التراثية، أو البحث عن أوجه الشبه بينها، أو وجه الاستشهاد كمورد المثل ومضربه إلخ هذه الأمور، التي قد تصرف القارئ أو تشغله عن وقائع وأحداث السيرة.

الصورة البيانية :

لا غنى للكاتب الأديب من استخدام الصورة البيانية، للتعبير بها عن المعاني والأحداث أو تصوير الأشخاص والبيئة في سيرته الذاتية، لاسيما إن كان الكاتب متمرسًا في الكتابة متضلعا في التأليف كالدكتور البَهِي، وجمال مثل هذه الصور أن تأتي طيعة خادمة للمعنى مصورة للنفس، على هذا النسق وظف الدكتور البَهِي الصورة البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية في سيرته الذاتية، كما تميزت بكونها جاءت قليلة طيعة غير متكلفة، بما يتناسب والقيم الجمالية لهذا الفن السردي، الذي يؤثر الحقيقة أكثر من غيرها، ومن نماذجه: الصورة التشبيهة باستخدام أداة التشبيه كأنَّ، فاستخدم هذه الصورة في ثنايا سرده لمرحلة طلب العلم، واتباع الأسلوب الحكائي في استرجاع هذه الذكريات يقول: فكنت ".. أتذكر الموضوعات: موضوعا، موضوعا، وكأنّي ذاكرتها بالأمس

(١) حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ١١٨.

القريب"،[١] فكما نرى أن الصورة جاءت طيعة خادمة للمعنى لا تكلف فيها، مناسبة للحدث، كأنه هو الذي يطلبها، فصور من خلالها قوة ذاكرته واستعداد حافظته لاستذكار ما تم تحصيله كأنه قريب عهد بمدارسة، وبذلك نقل الكاتبُ للقارئ ما مَنَّ الله به عليه من نعم، ووهبه من منح، تمثلت في قلب واع، وذاكرة حاضرة، وما كان لذلك أن يتحقق دون هذه الأداة التصويرية.

ومن الصور التشبيهية التي استعان بها الكاتب في سيرته الذاتية التشبيه البليغ، وجاء ذلك في ثنايا سرد الكاتب للتجاوزات التي كانت تصدر من أعضاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، أو من القائمين عليه وقتها، يقول: " وهذا المجلس –بوضعه الذي كان عليه– كان أخطبوطا "،[٢] ولعل اختيار الكاتب لهذا التشبيه بهذه الكيفية، وبما يوحي به لفظ المشبه به (أخطبوطا) من معان، كاف أن يوحي لقارئ اليوم بقدر الأفعال العبثية التي قام بها هؤلاء القوم، والتي قصها الكاتب وكان شاهد عيان عليها يوما ما، وهي صورة من استهتار غير مسبوق بمقدرات المسلمين. ويؤكد ذلك توظيفه لعدة أدوات بيانية أخري في سرد أحداث هذه المحنة تجلت في التصوير بالاستعارة، والكناية كقوله في ثنايا سرد أحداث صدامية وقعت بينه وبين أعضاء هذا المجلس وقت توليه وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، نظرا للتجاوزات الشديدة التي كان يرتكبها أعضاؤه في حق أموال البر التي خصها الواقفون على خير المسلمين، حتى غدا على حد قوله: ".. كل ما فيه معوج، ومختل، يسيره الهوى، والرغبات الشخصية، ينزف من أموال المسلمين للإنفاق على الشياطين وعبثهم وإفسادهم، وسحر العبث بالمال، والسير في طريق الهوى، أغرى الكثير ممن يجندون أنفسهم في سبيل طاغوت المال"[٣]، فهذه الفقرة من السيرة الذاتية لكاتبنا تعد بحق قطعة أدبية تصويرية، حافلة بالصور البيانية المشحونة، وهو ما أطلق عليه النقاد حديثا تكثيف الصورة، فصدق الكاتب وعاطفته المكلومة، وما أثر في نفسيته وحرك شجونه، هو الذي دعاه لإخراج هذه الشحنة، التي استدعت تنوع الصور ما بين تشبيه، واستعارة بنوعيها تصريحية وأخرى مكنية، وصورة كنائية، أعانت على نقل هذه المأساة التي أراد الكاتب أن يسطرها للقارئ في سيرته.

ومن نماذج الصورة الاستعارية تصوير الكاتب أحد صانعي الفتن بالجامعة بالشيطان واستخدامه هذه الاستعارة في أكثر من موضع، وأكثر من حدث مع بعض الشخصيات كقوله :" .. ولكن شيطان الجامعة كان متمرسًا على الوسوسة، وقادرًا على التنسيق بين الأكاذيب..".[٤] وفي

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ٣٤.

[٢] المرجع السابق نفسه.

[٣] المرجع السابق ، صـ١٢٥.

[٤] المرجع السابق ، صـ١١٢.

موضع آخر يذكره بالصورة نفسها فيقول: " ولكن سكوتي ربما أكد له وسوسة الشيطان الذي أصبح يزوره تباعا"، كما يقول في خاتمة هذه الأحداث وحل عقدة هذا الصراع بينه وبين وكيل الجامعة: "وَعَرَفَ –ولكن متأخرًا– "الشيطان" الذي كان يوسوس إليه.."[١] فقد استعار الكاتب لفظ الشيطان لهذا الواشي لتشابههما في أن كلا منهما يحدث الوقيعة والبغضاء بين الناس بما يقوله من أكاذيب ويروجه من أراجيف، وحذف لفظ المشبه، وصرح بلفظ المشبه به، ولا يخفى ما قوى به الكاتب صورته من ترشيح الاستعارة، حينما ذكر معها ما يناسب المشبه به الشيطان من الوسوسة، فما من مرة ذكره فيها إلا وصوره موسوسا محدثا للفتن بجامعة الأزهر، مفرقا بين أبنائها، ويظهر للقارئ مدى تأثر الكاتب، وما أحدثته في نفسه أفعال هذا الشيطان، والذي ربأ بنفسه عن ذكر اسمه تعففا وصفحا، فكان جمال ما سرده من صور ملائما ومتناسقا مع تسجيل الحدث وبيان أثره.

ومن توظيف الكاتب للصورة الكنائية قوله مصورًا تصرفات بعض الشخصيات غير اللائقة، وهو يسرد صورًا من الامتهان للمسئول الشريف صاحب المبدأ بعد أن يترك منصبه، وما عاناه من عدم الوفاء والتقدير له، بعد تركه رئاسة الجامعة والوزارة وعودته للتدريس، وقد أهداه رئيس جمهورية النيجر بعض الأوسمة والنياشين حينما زار مصر تقديرا لجهوده في توفير مدرسين للإسلام واللغة العربية في مدارس بلاده، فأُرسلت هذه الهدايا إلى الأمين العام للجامعة، وهو بدوره أرسلها لعميد الكلية ليسلمها للدكتور البَهِيّ دون إقامة حفل ودون أن يعبأ به أحد يقول: " وبدت على العميد أمارة الأسف وهو يقدم إليَّ الهدية"،[٢] والكلام كناية عن شدة الحرج والخجل الذي تملك عميد الكلية، والمرارة والحسرة لديه...

وثمة أساليب سردية أخرى اتسمت بها بعض تعبيرات الكاتب، كاتسام الأسلوب أحيانا بالحس الفكاهي، الناتج عن سرد بعض المواقف التي تعرض لها في حياته، فيوظفه ليضفي على الأحداث شيئا من المرح، ومن ذلك قوله: " وابتدأنا في "ميونج" نقضي بعض حاجاتنا بالإشارة، فقد تفاهم معنا الحَمَّال بالإشارة على موعد قيام القطار إلى "برلين"... وأردنا أن نتناول الإفطار في بعض محلات الحلوى والفطائر فاستعملنا الإشارة كذلك، وكنا نضحك والآخرون يضحكون، لأن التفاهم باللغة غير وارد إطلاقا".[٣]

وقبل ختام هذا المبحث يجدر الإشارة إلى بعض الهنات الأسلوبية التي وقع فيها الكاتب، وأكثرها شيوعا في كتاب " حياتي في رحاب الأزهر.."، استخدام الكاف التي ليست للتشبيه، وفسرها

---

[١] حياتي في رحاب الأزهر.. ، الدكتور محمد البهي، صـ١٢٥.
[٢] المرجع السابق ، صـ١٢٦.
[٣] المرجع السابق ، صـ٣٩.

علماء اللغة في العصر الحديث بأنها ناتجة عن الترجمة من اللغة الإنكليزية، كما في قوله : "وطلب إلى أن أقبل مكافأة شهرية على القيام بمهام مراقب عام الثقافة بالأزهر، بالإضافة إلى أداء الوظيفة كأستاذ للفلسفة بكلية اللغة العربية.. وباشرت العمل كرسالة... وعندما نقلت كمدير عام للثقافة الإسلامية بإدارة الأزهر... ثم من بعدها إلى الجامعة كأول مدير لها..."، والحقيقة أن هذا الأسلوب شائع عند الكاتب بصورة ملحوظة، ووجه تخطئته أن العرب لم تنطق به، والصواب أن يقال بوصفي، أو بكوني.. إلخ ما ذكره اللغويون.. ويبدو أن الدكتور البَهِيّ لم يلتفت لتخطئة هذا الأسلوب ربما لشيوعه في عصره، أو رأى له وجها مستساغا لكونه تعلم اللغة الألمانية والإنكليزية، فكثيرًا ما كان يترجم ما يقرؤه بهذه الصورة، وقد لاحظت أن الدكتور البهي أكثر من استخدام هذا الأسلوب في كتاباته لدرجة وصلت به أن استخدمه في عناوين إحدى مؤلفاته، وهو كتاب " الإسلام كنظام للحياة ".

ومهما يكن من أمر فإن الكاتب استطاع أن ينوع أساليبه خلال سرد أحداث حياته في سيرته، فوظف أنماطا أسلوبية متعددة، تعاونت كلها على خدمة فكرته، وعبرت عن معانيه خير تعبير، كما جاءت طيعة لا تكلف فيها، معبرة عن أحداث حياته بما يناسب مراحلها المختلفة، وأشخاصها المتعددة، وبيئتها المتنوعة، وهي في كل أساليب عربية فصيحة رصينة لا تنفك عن لغة الأدب المعبر والمصور لخلجات نفس كاتبه، وإن كان أبرز ملامح أسلوب السرد عنده مناسبته للجنس الأدبي الذي يتناوله فجاء الأسلوب حيًّا واقعيًّا، لا يجد القارئ فيه فجوة أو تكلفا في وصف مرحلة معينة، أو تسجيل حدث ما، أو الحديث عن شخصية، أو سرد حوار.

الخـــاتمـة

بعد هذه الدراسة المتأنية للسيرة الذاتية لأحد رجال الأزهر، وأعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، توصلت الدراسة لعدة نتائج مهمة، هي:

١: كشفت الدراسة عن أحد الفنون الأدبية المستحدثة، التي لم يلتفت أحد إلى دراستها في نتاج بعض أعلامنا.

٢: أثبتت الدراسة أن كتاب "حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ.. ووزير" للدكتور محمد البَهِيّ يندرج ضمن فن السيرة الذاتية.

٣: يعد كتاب "حياتي في رحاب الأزهر طالب.. وأستاذ.. ووزير" للدكتور محمد البَهِيّ، وثيقة أدبية تاريخية، عَرَّفَتْ بأحد أعلام الأزهر المبرزين في العصر الحديث، كما سجلت فترة من أهم الفترات التي مرت على الأزهر في هذا العصر، فالكتاب إحدى الوثائق المهمة في تاريخ الأزهر؛ بما تضمن من أسماء مشايخه، وأعلامه، وما دار من صراع في هذه المرحلة نحو فكرة تطويره والنهوض به.

٤: تفرد الكاتب بأسلوب خاص في سرد أحداث سيرته، فربطها بحياته العلمية، التي سجل من خلالها مسيرة تعلمه وتعليمه وعمله، في هذه المؤسسة العريقة (الأزهر) التي لم ير نفسه يوما في غيرها.

٥: نجح الكاتب في سرد مراحل حياته وأحداثها في صورة طبيعية، انتقل فيها من مرحلة إلى أخرى في تدرج طبيعي، لا يستشعر القارئ فيها خللا أو فجوة في أية مرحلة.

٦: تحرى الكاتب الصدق في سرد مراحل حياته، فجمع بين الصدق الواقعي في سرد الوقائع، والصدق الفني في صياغتها.

٧: جاء عنوان السيرة عنوانا دالا كاشفا، كما كان عنوانا فنيا موحيا بما حمل من شحنات متعددة، إغرائيا تشويقيا بما أثار من فضول القارئ لقراءته.

٨: تميزت الأحداث في سيرة الكاتب بالترابط والتناسق، والسرد المنطقي، وتخللها الصراع والحبكة، كما جاءت منوعة ما بين أحداث خاصة، وأحداث عامة.

٩: عبر الكاتب عن شخصيته الرئيسة من خلال ضمائر التكلم، والتي ساعدت على حضور السارد – كاتب السيرة– من أولها إلى آخرها، كما تميزت بأنها شخصية نامية متجددة متطورة متفاعلة مع الأحداث.

١٠: تميزت الشخصيات الثانوية في السيرة برمزيتها؛ فأخذت بُعْدين فنيين: أحدهما إيجابي، والآخر سلبي.

١١: أخذ الزمن في سيرة الكاتب أشكالا متعددة؛ أبرزها الزمن التاريخي، والنفسي، والاجتماعي، والديني، والفيزيائي.

١٢: خرج المكان من مجرد حيزه العمراني الضيق وفضائه المكاني المحدد، إلى فضاء نفسي أرحب، وصورة رمزية موحية منبثقة من تجربة الكاتب الخاصة بجميع أبعادها ورؤاها.

١٣: تميزت لغة الكاتب بفصاحتها وسهولتها ووضوحها، وملاءمتها للحدث، وإن لم تخل من بعض الألفاظ العامية والعصرية، التي صبغت السيرة بصبغة الواقعية.

١٤: اعتمد الكاتب على الأسلوب الخبري التقريري في الغالب، كما استعان بالأسلوب الإنشائي التصويرى.

دكتور : محمد الدسوقي محمد إبراهيم غَبْن
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا : المصادر:

١: حياتي في رحاب الأزهر، طالب.. وأستاذ.. ووزير، للدكتور محمد البَهِيّ، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

ثالثا: المراجع:

٢: آليات السرد في الشعر العربي المعاصر، د/ عبد الناصر هلال، الناشر مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٦م.

٣: الأدب وفنونه، دراسة ونقد، د/ عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط التاسعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٤: الأسلوب : أحمد الشايب، ط مكتبة النهضة المصرية، ط الثامنة، ١٩٨٨م.

٥: ألف ليلة وليلة، تحليل سميائي تفكيكي لحكاية حَمَّال بغداد، عبد المالك مرتاض، ديوان مطبوعات الجامعات، الجزائر. ١٩٩٣م.

٦: إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، محمد أحمد النعيمي، ط دار فارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط الأولى، ٢٠٠٤م.

٧: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، طبعة صبيح (القاهرة)، الطبعة الثانية (د . ت) .

٨: بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية، الدكتور/عبد الفتاح محمد عثمان، مكتبة الشباب القاهرة، عام ١٩٨٢م.

٩: بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة، الدكتور/هاشم ميرغني، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، ط الأولى، عام ٢٠٠٨م، .

١٠: البنية السردية في الرواية : دراسة في ثلاثية خيرى شبلى (الأمالي لأبى على حسن: ولد خالى) عبد المنعم زكريا القاضى، تقديم أحمد ابراهيم الهوارى، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الجيزة، ط الأولى، ٢٠٠٩م .

١١: البنية السردية في النص الشعري، د/ محمد زيدان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية شهرية، رقم (١٤٩)، أغسطس ٢٠٠٤م.

١٢: تتمة الأعلام للزركلي: محمد خير رمضان يوسف، ط دار ابن حزم، بيروت، ط الثانية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

١٣: تحليل الخطاب الروائي (الزمن. السرد. التبئير)، سعيد يقطين، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط ١٩٩٧م.

١٤: التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
١٥: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د/ يحيي إبراهيم عبد الديم، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٦م.
١٦: ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي)، د/ محمود عبد الوهاب، ط دار الشؤون الثقافية بغداد، ط الأولى (د،ت).
١٧: دراسات في تعدي النص، وليد الخشاب، ط المجلس الأعلى للثقافة، مطابع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (د- ت).
١٨: الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر، محمد آيت ميهوب، ٢٠١٦م.
١٩: الزمن بين العلم والفلسفة والأدب، إميل توفيق، ط دار الشروق، القاهرة، ط الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٢٠: السيرة الذاتية، جورج ماي، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، تونس، ط١٩٩٢م.
٢١: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، رؤية نقدية، شعبان عبد الحكيم محمد، ط دار العلم والإيمان للنشر، ٢٠٠٩م.
٢٢: السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا، وإحسان عباس، نموذجا، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٢م.
٢٣: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة: عمر حلي، ط المركز الثقافي العربي بيروت، ط الأولى، ١٩٩٤م.
٢٤: سيمياء العنوان بسام قطوس، وزارة الثقافة، عمان الأردن ٢٠٠١م.
٢٥: سيميولوجية الشخصية الروائية، فيليب هامون، ترجمة سعيد بنكراد، الرياض ١٩٩٠م.
٢٦: الشخصية بين السواء والمرض، عزيز حنا داود، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٩١م.
٢٧: العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د/ البهي، تقديم د/ إبراهيم الهدهد، هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة ١٤٤٠هـ/ يوليو ٢٠١٩م.
٢٨: عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، محمد الباردي، ط اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠٠٥م.
٢٩: العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ.
٣٠: غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي، صبيحة عودة زعرب، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط الأولى، ٢٠٠٦م.
٣١: فن السيرة، د/ إحسان عباس، ط دار صادر بيروت، ط الأولى، ١٩٩٦م.

٣٢: فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الأدبي، د/ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، ط دار السعادة القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٣٣: الفنون الأدبية وأعلامها، أنيس المقدسي دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ١٩٦٤م.
٣٤: في نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، ط عالم المعرفة، عدد شعبان ١٩٩٨م، العدد رقم (٢٤٠).
٣٥: في نظرية العنوان ، خالد حسين حسين، ط دار التكوين (د – ط)، ٢٠٠٧م.
٣٦: القاموس المحيط للفيروز آبادي الشيرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٥م.
٣٧: لسان العرب: ابن منظور، ط بيروت، ٢٠٠٠م.
٣٨: مختار الصحاح للرازي، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ط مكتبة لبنان بيروت، ١٩٨٦م.
٣٩: مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، سمير المرزوقي وآخرون، ط دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٦م.
٤٠: المعجم الأدبي، تأليف جبور عبد النور، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط الثانية، ١٩٨٤م.
٤١: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبة وآخرون، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٦م.
٤٢: المعجم الوسيط، ط مجمع اللغة العربية، ط الثانية ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
٤٣: مقدمة ابن خلدون، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م.
٤٤: من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، د/ محمود زقزوق، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
٤٥: منهج القرآن في تطوير المجتمع، الدكتور محمد البهي، مكتبة وهبة، ط الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٤٦: موسوعة السرد العربي، د/ عبد الله إبراهيم، توزيع قنديل للطباعة والنشر، دبي، ط١،٢٠١٦م.
٤٧: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الدكتور: محمد رجب البيومي، الناشر: دار القلم – الدار الشامية، سنة النشر: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.